



حَوْلِيَّةُ كَلِمَةِ الْبَنَاتِ

للآداب والعلوم والتربية - القسم الأدبي

العدد الثاني عشر

١

مطبعة جامعة عين شمس

١٩٨٦



الصفحة

- ١ - أدب الاطفال بين الحكاية الشعبية والابداع الادبي
الاستاذ الدكتور علي الحديدي
- ٢٩ ٢ - ماهية المدينة المسجودية
الاستاذ الدكتور / حمود محمد عبد الدعيف عصفور
- ٥٣ ٣ - العمران في الشرق العربي في القرن السادس الهجري
(قراءة في رحلة ابن جبير)
دكتورة / نوال محمد عبد الله
- ٦٩ ٤ - المقام بين ناقديه
الاستاذ الدكتور / يوسف حسن نوفل

رئيس التحرير : الاستاذ الدكتور / احمد عبد الرحيم طه
وكيل الكلية للدراسات العليا والبحوث
سكرتير التحرير: الاستاذ الدكتور / يوسف حسن نوفل

ادب الاطفال بين الكائنة الشعبية والابداع الادبي

أ. د. علي الحديدي

الكبار هم الذين يمنحون أدب الأطفال لكن الصغار هم الذين يكتبون له الشعر ، وأدب الأطفال قديم قدم الأرومة والطفولة للإنسان ، وعلى درب التاريخ الطويل للبشرية نتأمله شفاء الأسهات والجذات ميراثا للأجيال ، وتلقته آذان الصغار إبتاعا ومؤانسة وتسلية ، وللتوعية تمهيد الجماعة لتحقيق كثيرا من مواقفه ويرسب الجانب الأكبر من معارفه ، واحتفظت به ذاكرة الزمن ليسهم بنصيب كبير في نقل تراث البشرية ، عبراتها من جيل إلى جيل .

وأدب الأطفال حديث حداثة القصة أو الأغنية التي تنبشها اليوم براعيسج الأطفال في الأداعين المسوعة والرثية ، أو ترويبها الدراسات في فصول الدراسة ، أو يغنيها الرواة في المخيمات والتوادي والرحلات ، أو تندهمها المطبعة في كتبها ، أو تنكبها الأسهات والهربات للأشعار قبل النوم . ينسجون جميعا أدبا يفتح للأطفال بابا من البهجة والسرور على قلوبهم ، وينقلهم بأجنحة الخيال إلى أصباغ الحياة ، أو يخلق بهم في آفاق المستقبل البعيد ، أو يحلهم خاسر الحياة ، أو يطوف بهم أرجاء الدنيا ، أو يحلهم بواقع الحياة . ومن ذلك كله تروا خبراتهم ، وتتبع مآثرهم ، ويتوقون الى الوقوف على حقيقة البشر الذين هم مشبهون بهم ، ويهتفون إلى معرفة العالم المحيط بهم ، ويتعرفون مشكلات الحياة ويسعون وراء اكتشاف أسرارها ، ويغفون في معرفة أنفسهم وأنتاساتهم ، ويسعون في مقابلة خبراتهم بخبرات الآخرين ، ليحققوا على الصواب والخطأ في مجتمعهم ونفسى سلوكهم بحثا وراء الرضا النفسى والاحتسان الداخلى . ومن ثم يخرجون من دائرة الحياة الذاتية اليومية الضيقة إلى دائرة التعلم الواسعة ، فيدركون أن خبرات الماضي سبيل إلى فهم أعنى الحاضر . ومن هنا كان أدب الأطفال سبيلا لتوابع معرفتهم الصغار الحياة بأبعادها الماعية والماعرة والمستقبلية .

وأدب الأطفال في عصوره القديمة عاش حالة على التراث القصصى والأدبى للكبار ، سار في ظله يسترفد رفده ، ويستلهم نميجته ، ويتخذ منه مصادره ويستعترف منها المائدة والصورة والخيال . فتهالت لهم الغرافات والأساطير والملاحم وقصص الحيوان وحكايات الجن والسحرة ، وغير ذلك من القصص التقليدية والشعبية . وكلما تطور التفكير الإنسانى وتطور بالضرورة منه الأدب ، تطورت معه حكايات الصغار لتصبح هي الأخرى جزءا من مادة الحياة ، ووسيلة اتصال أساسية للبشرية ، وسبيل الأجيال المتعاقبة لتقبل الأفكار ، والقيم الروحية ، والثل ، ومستويات السلوك ، والتقاليد . وصارت حكايات الأطفال كمالجدول الصغير ينساب في موازاة النهر

الناس من نفس اختيار يعين بحواره ويستت من الحياة (١)

والسبب الرئيسي في عدم استقلال الأطفال في العصر الحديث هو
يعبر عن حاجاتهم الفنية والعاطفية والنفسية هو فكرة المجتمعات الإنسانية في الأسرة
نفسها ، ذلك أنها لم تكن في رأيهم مرحلة وجود مستقلة بذاتها أو مهنة في ذاتها
بل كانوا يمتدونها مرحلة انتقال تعبر بالكائن الأدنى الصغير إلى مراحل النضج
وتعمل المستولية في المستقبل . وكان يستهويهم ويميل عليهم التفكير في المستقبل
المستقبل ، يرون أن يتخلص الطفل في وقت مبكر من العتلية الخاصة به في الدنيا ،
ومن أنما يستدركه في المستقبل ، في حين عقله الراشد وسائرهم . وبهذا فإنهم يرون
المستقبل كمنهج في الحياة ، على أنه راسد . وأما في الماضي ، فكانوا يرون
أن ما يتلقونه من الراشد يتبع إلى النفس بآراء براء ، بل كانت معارفهم في الحياة
يعتبر من الراشد (٢)

ومن هنا لم تهتم الحضارات القديمة بالعلامة بالقدرة العقلية
في يتبع خبرات تجاه الدافع الذي نشأ فيه . فكان الإغريق من أول من
التدعيم مثلاً يتركون ألقابهم ليلة ميلادهم عراة على قمم الجبال ، حتى لا يفتنوا
على تيد الحياة غير الأصحاء الأقوياء الجديرين بأن يكونوا جنوداً في جيش اسرطسة
المصطفي ، ثم ينشئونهم تنشئة عسكرية خشنه ، ليكونوا فرساناً غلاظ الأكباد في قتال
الأعداء . ولم يمن الرومان في تنشئة ألقابهم بالنبل العليا بل تركوها وراءهم ظهريا ،
واهتموا بالغاية العملية ، وكانت المنفعة عندهم هي غاية الحياة ، فنشأوا ألقابهم
ليكونوا جنوداً لا امبراطورية روما العظيمة يفتحون البلاد ليهودوا العالم .

وفي الشرق كان الفرس يملكون ألقابهم حتى السابعة - كما يقول هيرودوت -
- أمور ثلاثة ركوب الخيل ورس السهام وقول الحق ، وبعد السابعة يسمي الطفل
للدولة فتقوم بتأهيله في مجموعات ليصير جندياً في جيش هرمز الفاتح ، فأذا ما بلغ
الخامسة عشرة تلقى حزام الرجولة وانخرط في سلك المحاربين (٣) . والعرب القدامى
كانوا يسمون بألقابهم إلى الصحراء في اليوم الثامن من مولدهم مع مرغمات من البدو
ثم لا يعودون بهم إلى أسباتهم حتى يبلغوا الثامنة أو العاشرة ، وذلك لينهل
الأطفال روح الحرية من الصحراء ، وليجدوا في هوائها وخشونة الممشى فيها ما
يسرع بهم إلى النمو الخشن ، وما يهيئهم للقلعة ويؤهلهم لحمل السلاح (٤) . وكانوا
في الجاهلية يتعرضون للمأمة الكبرى وهي وأداهم غشمة إلقاء أو غوفا على الهبات
من العار .

والحدث البارز الذي غير كثيرا من مفاهيم المجتمعات القديمة من الطفولة
ومثل في معاملة الأطفال هو ظهور الإسلام . ذلك أن تعاليمه وآراء علمائه

ومشربه كانت تلأورا حقيقتيا في تاريخ الأقال ، فقد جعل الأولاد زينة الحيلة الدنيا (٥) ، ونعمة كبرى يمد لنا الله بها لتصبح بهم أكثر نفيرا (٦) ، وأغنى الصغار بدل الرغبة في وأدحم غرة أعين (٧) ، وأحباب الله ، وريحهم من ريح الجنة ، وفرى التعليم على الأولاد والبنات (٨) ، ودفع الكبار إلى رحمة الصغار ورعايتهم حتى صاروا أكبادا تنشى على الأرض .

كذلك اهتم علماء المسلمين ومفكرهم بتربية الأقال وتعليمهم وتشثنتهم النشأة الإسلامية الصحيحة ومن أسهم بفكره من العلماء في هذا المجال : محمد ابن سعيد بن حبيب التوخي القيرواني المعروف بابن سمنين (٢٠٢ - ٢٥٦ هـ) ، وأبو الحسن علي بن خلف القابسي القيرواني (٣٢٤ - ٣٢٨ هـ) ، وأحمد بن محمد ابن يعقوب المعروف بابن سكويه (٣٢٥ - ٤٢١ هـ) ، وإخوان الصفا (القرن الرابع الهجري) ، والشيخ الرئيس أبو علي الحسين ابن عبد الله بن سينا (٣٧٠ - ٤٢٨ هـ) وأبو عمر يوسف بن عبد البر النمرى الأندلسي (ت ٤٦٣ هـ) ، وحجة الإسلام محمد ابن أحمد الفزالي (٤٥٠ - ٥٠٥ هـ) ، وبرهان الدين الزرنوجي (ت ٥٧١ هـ) ومؤلف عام الاجتماع أبو زيد عبد الرحمن بن خلدون (٧٣٢ - ٨٠٨ هـ) ، وعبد الباسط ابن موسى الملموي (ت ٩٨١ هـ) (٩) وقد سجل هؤلاء وغيرهم من علماء المسلمين آراءهم المتفردة وأفكارهم المتميزة في تعليم الصغار وتشثنتهم ، ودونوها في كتابات مستفيضة ، عالجوا فيها كثيرا من القضايا التعليمية ، والنفسية ، والسلوكية ، والاجتماعية بمنهج متقدم في عصره وعقلية سبقت زمانها ، فأقاموا وزنا كبيرا بين سادة الدراسة وعمر الطلب ، وفرقوا بين تعليم الصغار وتعليم الكبار ، وأدركوا فائدة التفكير في طلب العلم ، واحتدوا إلى التعليم المتواصل وهو ما يسمى بالترسية المستمرة (Continuing Education) فقالوا بالطلب العلم من المهد إلى اللحد ، وبحسن بالمرء أن يتعلم مادامت الحياة ، وعرفوا الصلة بين الجسم والعقل وعقدوا الموازنة بينهما ، ودعوا إلى الرياضة البدنية ، وأوجبوا الممارسات والإجازات تؤكد الراحة التامة ، وأكدوا أهمية اللعب للطفل وحاجته إلى النشاط الجسمي ، ونادوا بالتدرج في التعلم من السهل إلى الصعب ، وعنفوا بمسؤول الدلائل وقد راثهم وتوجيههم نحو الدراسات التي تؤهلهم ليا مولهم وقابليتهم ، وهو ما يسمى اليوم بالتعليم المهني ، ودعوا إلى ضرورة إرشاد الدلائل لباوعادة توجيهه إذا استهان حلا اختياره في البداية ، وهو ما يعرف باسم (Reorientation) وحددوا مراحل التعليم ، وبرامج الدراسة ، ومناهجها ومواقفها ، وقرروا أشد التربية والنشئة في الأقال لكنهم لم يهتموا بدور التربية الأصلية فصرفوا حسنة ود التربية والاكتساب والتطبيع ، وهو ما يعرف بالحدود بين الوراثة والبيئة ، أو بين التربية والتطبيع Nature and Nurture . فاختلاف الدلائل لا يرجع

عن طريق التربية وحدها ، بل من خلال التربية والبيئة والوراثة والسمات الفطرية .
والغريب في ذلك ، وبغزوات كثير من النقاد ، أن التربية الإسلامية كانت تعبيراً عن
روحها ، بعد تحديدنا في عالم تشكك الأطفال .

وإذا أننا النظر في هذه الأفكار الإسلامية نجد بعضاً من أوجه بينها
ومن الناحية التي قامت عليها التربية الحديثة في أوروبا ، ومن هنا قد يذهب بعض
النقاد إلى التساؤل : ماذا لو قدر لهذا الفكر التربوي الإسلامي أن يندمج مع
الذي في حركتها الثورية بما يحكم من أجله ، بعد سلبه من أصوله وأصوله ،
وأنه لا يجرى مواجهات المثباتات الخاصة بهم ، بل أنهم قد وافقهم ؟ إذا
استخدمت من نظريات تربية متكاملة قد تتناول أو تتفادى مع التربية الحديثة ، لكنها
كانت - بكل تأكيد - حلت في عالمنا الحديث .

وبقدر هذا الاهتمام الكبير الذي أولاه المسلمون للأطفال
في تعليمهم ، نوال فترة ازدهار الدولة العربية الإسلامية كان اهتمامهم شديداً وناسياً
من جانب الأدباء . والمتتبع للسيرة الأدبية للدولة منذ العصر الجاهلي وحتى
مطلع عصرنا الحديث لا يجد أدبياً واحداً ألف قصة أو حكاية ، أو أشبه قصصاً أو
أغنية للأطفال خاصة ، شئت ما اتعهم والترويح عنهم أو إدخال السرور على نفوسهم
على الرغم من التقدم العلمي والفكري والازدهار الأدبي والفني والحضاري الذي كانت
تتم به الدولة العربية الإسلامية . نوال ثمانية قرون كاملة ، وعلى الرغم من أن المنهج
التقليدي للأطفال في التربية الإسلامية القديمة كان ضمن مقرراته النفس والشعر ،
أما كان على المربيين أن يرووا للأطفال ما سار من الشئ وحسن من الشعر (١١) ،
وبعلمهم سير الحكماء وأخلاق الأدباء (١٢) ، ويصبروهم بالخطب والسفاري (١٣) ،
ويبرغونهم الأخيار (١٤) ، ويضربوا لهم القدوة بأحاديث الأخيار وحكايات الأبرار (١٥)

والذي يدعو إلى الدهشة حقاً أن الأدباء العرب القدماء أسقطوا
الأطفال من حسابهم وأحلوهم إهمالاً كاملاً فيما يقدمون من فنون أدبية ، على
الرغم من قيمة التراث القصصي الذي كان يزخر به المجتمع العربي نتاجاً للعقلية
العربية وقد صنعت حظاً موفوراً من الخيال ، وأعطيت قدرة فائقة على صياغة المادة
المحيطة بها قصصاً جميلة ، واستازت بالوهية البديعة التي تمهد تأليف القصص
القديمة استوارثة وتحريجها فن ثوب يكاد يكون جديداً (١٦) ، والتي تستقبل الحكاية
المتنوعة إليها بحفاوة وتقدير ، وتصوغها من حديث بمهارة ودرية ، وتضيف إليها
تشييعاً بالروح العربية ، وتضفي عليها من موهبة الخيال والفن التي تتطبع
بالأدباء ، فلا يكتفون بذلك إلا أن ينسجوا إلى العرب وينسجوا من دهرنا الأول .

أما من الحكايات الخاضعة للعرب القدامى فقد وصلوا به إلى حد الكمال والابداع (١٣)

كذلك لم يلق الجانب الرسمى من المجتمع بالا إلى الفن القصصى للصغار ، فلم يقدره الرواة أو المدونون قدره ، ولم يستوعب انتباههم من " أدب الأطفال " إلا الأغنيات التى كان الكبار يرقصون بها الصغار ، وحتى أغنيات الترقىص هذه تدخل فى العالم الموسيقى للطفل لكنها لا تدخل فى أدبه ، ذلك لأن معانيها وألفاظها - وهى فوق مستوى الأطفال - تصنفها فى أدب الكبار ، فهى أغنان عن الطفل وليست أغانى للطفل يمكن أن يفهمها بنفسه فيسعد بنفسياتها وألفاظها ومعانيها معا . وما وصل إلينا من موضوعات التراث القصصى العربى التى بلغت بالمجتمع حد الرفاهية الفنية ، كانت جميعها لأرغما الحاجات الفنية والمالية للكبار . فكتاب " كلياسة ودانة " مثلا يرموز السياسة والثأففة والشعوبية وحكايات المركبة ، كتاب للكبار ، وكذلك عشرات المصنفات التى كتبت على شاكلته ، و " ألف ليلة وليلة " سيد مصنفات الأدب وحكاياته المنزوعة عن الجن والأساطير والمغامرات وأسفار البحار ، وقصص السافرة عن الجنس ، وسافرة من القاذورات والنوادير التى أصغت العالم وأسعدته ، وما أعاقه إليه كل عصر من روائع ، وما أسهم فيه كل قطر عربى من صيفته ، وما اشترك فيه من تراث الشعب وخياله ، قصد به إشباع الرجل سيد المجتمع وتسلية .

وإذا كانت بداية أدب الأطفال ترجع فى الزمان إلى أول الزمان فالراصدون لحركة سيرته وانتقاله وهجرته وتطوره مع الأجيال القديمة يلمسون ظاهرتين بارزتين جديرتين بالتسجيل :

أولاهما : لم يحظ " أدب الأطفال " من الحضارات القديمة بالتدوين أو الدراسة والاهتمام كما حظى أدب الكبار ، فقد اهتمت أكثر الحضارات القديمة بتسجيل تراثها الفنى إلا أنها استغلت من حسابها أدب الأطفال اللهم إلا فى مصر القديمة أو حين يكون أدب الصغار متصلا بعمل مسن أعمال الكبار .

والثانية : لم يظهر لأدب الأطفال - فى سيرته القديمة الزلولة - فنانون متخصصون يبدعون فى خلقه ، ويبتكرون فى صيغه وأحناصه ، ويستقلون به بمسدا من أدب الكبار .

وأحد السبب فى إهمال أدب الأطفال وعدم تدوينه فى التراث النفسى للعالم القديم هو تلك النظرة التى كان القدامى ينظرون بها إلى الطفل وهى أنه - على اعتبار أنتماءه إلى نسلها - ذاتها وجود مستقل ومن ثم لم يفلتوا إلى الحاجات أو الدوافع الخاصة بها فاستعانوا بها وأدبها . ولأن القدامى أنفسهم

وأشد أسمى شئ :

خير الناس والبيان متفق واللون مختلف والسمع والصبر (١٨) .
ويقول يا موت الحزن في كتابه " إرشاد الأريب " حرفة الأريب " (١٩) عن الحرفة
وصاحبها " غير مر وحرمة معتقرة " . يبلغ أمر الاستهانة أن ترد بعض القصة نسي
يقول شهادة معلم الديانة . وقد عزا آدم ميتز Adam Metz كثيرا ما لحق
بمؤلفي المسلمين من غروب الاشهر والسخرية إلى التأثير بالروايات اليونانية الهزلية
وكان المعلم فيها من الشخصيات المضحكة (٢٠) . وحتى لا يلحق بالأدباء ما لحق
ببعض النحاة اختبروا عن الكتابة للأطفال .

وأما من ذكنا أن الكتابة الأدبية للأطفال لم تكن حتى وقت قريب
أمر شائع بين الأدباء ، بل كان يظن أنها تنزل من قدر الأديب الفنان
الذي شأنه أن يترك أفكار الناس أن الذين يكتبون أدبا للصغار هم من لا يرتفع بهم
الكتابة الأدبية إلى الكتابة للكبار ، ومن ثم خاف الأدباء على مجدهم الأدبي (٢١)
فأولئك والأدب لا مجال ، وأعرضوا عنه ، ونأوا بهواهم من الأبداع فيه . وذلك
مادة الشاعر الفرنسي الكبير عضو الأكاديمية الفرنسية شارلز بيرو Charles Perrault
حين كتب أول حبيزة في السطور الحديثة من قصص الأطفال خاصة للأطفال عام ١٦٩٧
يعنون " حكايات أمي الأوزة : Tales of My Nather Goos " أن يضع
عليها اسم ابنه الصغير " بيرو دار مانكور " (٢٢) . والأديب الكبير على الرغم من شاعريته
التي لا زالت وسببها لأدبية المعروفة في عصره خاف على مجده الأدبي ، فلم ينسب
حبيزة قديم الأطفال لنفسه ، لكن الأتيال الكبير على " حكايات أمي الأوزة " من
أفكاره متنازلا وكبارا ، وشهرتها التي طيقت الاتفاق في فرنسا وأوروبا بعد أن ترجمت
إلى لغاتها ، جعلت شارلز بيرو يراجع نفسه ، ويخرج للأطفال مجموعة أخرى بعنوان
" أمصيص وحكايات من الزمان الماضي " ويضع اسمه عليها هذه المرة . وبذلك
بدأ عهد جديد في أوربا لم تعد فيه الكتابة للأطفال حيلة في شأن الأدبيات ،
ولا يخشون منها على مجدهم الأدبي ، بل أصبحت عملا أدبيا يفخر به الكاتب إذا كان
الحمل الأدبي متنازلا يقل عليه جمهوره من الأطفال ،

والمهتمون بأدب الأطفال إذا تنبوه في مسيرته التاريخية ، ورصدوا -
من أدب الزمان الحالي - طواحيه وحركة تطوره يجدون ثلاثة ضغوطات تاريخية رئيسية
أثرت تأثيرا كبيرا في توجيه هذه المسيرة ، ولعبت دورا فاعلا في حركة تطوره ، هي :
بحلقه وابتداعه كيانا أدبيا مستقلا وامتدادا إلى ذبوعه وانتشاره وازدهاره ، ثم
الذلة إلى الاتفاق التي جعل إليها في عالمنا المعاصر .

وأول هذه المجموعات ، حين أدت شمس القرن السابع عشر بالمغرب ،
وكتب الشاعر الفرنسي الكبير شارل بيرو عام ١٦٩٧ للأطفال خاصة أول مجموعة
قصصية بعنوان " حكايات أمي الأوزة " ، ومن حكاياتها: الجنية ، ومندريلا ، والجمال
النائم ، وذو اللحية الزرقاء ، والقط في الحذاء الطويل . وهذه المجموعة بدأت
ميلاد جديد لأدب الأطفال ، فالأقبال المنقطع النظر على قراءتها زاد من مجد
كاتبها ، وأعلنت من مكانته الأدبية شهرتها التي تجاوزت فرنسا إلى أوروبا ، ولعل
الحظ الوصى المضروب على الكتابة للأطفال من الأدباء ، وطاعتهم على سمعتهم
الأدبية إذا ابتدوا أدبا للصغار ، وبعت نتيجة نشاطا عجيبا فأنزلوا بحثون
ويشعرون في الآداب الشعبية الأوروبية مستلهمونها ، أو يعمدون صياغتها ويخففون
عليها طابعهم الفني ، ويبسطون أسلوبها ومعانيها لتناسب الصغار (٣٣) ، يقرأونها
أو تحكي لهم فتبعث فيهم روح المرح والمتعة ، وتغلب لهم بألوان الخيالات البهجة
وتغتنم بأحداثها الأسرة وأشخاصها اللذين يشدون إليهم قلوب الصغار فيخلقون
رواياتهم في عوالم جديدة يعرضون لهم فيها الحق في جماله ، والعدل في بهائه ،
والصدق في روايته خلال ثوب من التصور والخيال . وأخذوا يبدعون أدبا جديدا
للصغار ، يصلون مضمونه الشعبي بالتجربة الواقعية ، ليمسح الأطفال بفكرته
الإنسانية وتغلب عليه الجميل عبارات الرشيقة ومضات السحر التي تنتشر فيه ويشبع
عواطفهم بصوره ، ويوظف عقولهم بخياله ، ويغنى قلوبهم بمضات الخير والحق فيه ،
ويعلم حذاركم عن طريق التسلية والترويح والمتعة .

من هنا يمكن القول بأن مجموعة " حكايات أمي الأوزة " - وقد أثارت في
فرنسا والبلاد الأوروبية الأخرى ، وخاصة ألمانيا وإنجلترا ، حركة جادة في أدب
الأطفال سدت بنتاجها فراغا كبيرا عانى منه الصغار زمانا طويلا - تعتبر أول مراحل
التكوين الحقيقي لأدب الأطفال ، فقد أخذ يستقل عن أدب الكبار ، ويخرج من
وصايته ، ويتفصل تدريجا عن أحضان الآداب الشعبية للكبار ، لكن أدبا هسهة
الحركة كانا ينظرون إلى الأطفال من منظور عام وكلي ، يضعونهم جميعا في نطاق
محدد دون اشتغال بالتمولة كمرحلة مستقلة بذاتها - مهمة في ذاتها - ومؤثرة بقوة في
أجل الحياة التالية لها ، ودون اعتبار للفروق الفردية أو فروق السن الزمنية
في تراكمها ، أو الفروق بين التمولة نفسها ، وكان ذلك بناج العصر وتفكيره عن
الأطفال وقد سادت فيه التريبة التقاليدية التي تترك على النفس القديمة ذي النزعة
الديكتاتورية لأدبها ، فأجملت التوجيهات التي تسيطر على حياة البشر ، وأهمست
أثر البيئة السليمة بالطفل ، وتنبأ بتأثيره أن تنحى بالتربية (٣٤)

والمتعدلات الثاني بعد الحرب العالمية الأولى ، ذلك أن أدب الأطفال في أوروبا وأمريكا قد أخذ يبتلى في مسارة الصحيح ليدخل مرحلة الازدهار فمسي الشكر والمضمون ، واندفع في سيرته بقوة لا تتوقف ، بل زادت ثراء مع الأيام . وقد ساعد هذا الازدهار عدة عوامل منها :

١ - تأصيل علم نفس الطفل في أوائل القرن العشرين ، بعد أن عكف علماء على دراسة الطفل دراسة منهجية منظمة ، وبذلك انفتح الطريق للمعرفة الصحيحة بالطفل ونفسه ، وتكون شيئاً شيئاً " علم نفس الطفل " القوائم على الملاحظة والتجربة ، والذي اكتشف مرحلة الطفولة كمرحلة مستقلة ، لها ميولها واختصاصاتها وحاجاتها المادية والعاطفية ، ولها نوازعها ودوافعها المستقلة عن الكبار استقلالاً تاماً ، وأصبح من مسلمات هذا العلم الجديد أن نفسية الطفل تختلف عن نفسية الراشد اختلافاً كلياً سواء في الدرجة أو المستوى أو الطبيعة ، وبذلك تغيرت النظرة إلى الطفل ، ولم يعد ينظر إليه كراشد مصغر ، بل كائن مستقلاً لنفسيته وقواعده وقوانينها الخاصة بها . ووجدت التربية في علم نفس الطفل نهلاً ثراً ومصدراً غنياً تبني عليه بانياتها وأسسها الحديثة . وأصبح المنزع النفسي الجديد في التربية والذي يمثل حجر الأساس فيه الميرون يستأثر (١٧٤٦ - ١٨٢٧) ، وفرويل (١٧٨٢ - ١٨٥٢) ، وهربارت (١٧٧٦ - ١٨٤١) القاعدة المتينة للذهب التربوي الحديث ، فوجه عنايته إلى تكوين الطفل تكويناً متكافئاً مستقلاً بحيث لا يتهدد مجارفته وعلمه فقط ، بل يزداد معها نموه وتفتح ، ويصبح أكثر طلاق التفكير والتحليل . كذلك قدم علم نفس الطفل خدمات جليلة للتربية حين درس تأثيرات مرحلة الطفولة الحاسمة في المراحل المتعاقبة بعدها ، وفي بناء الإنسان وتكوينه ، وحين اكتشف مراحل الطفولة المختلفة وما تتميز به كل مرحلة من اهتمامات وميول وحاجات نفسية وعاطفية . وبذلك وضع الأسس السليمة لتربية ملائمة للنمو النفسي للطفل متمركزة حول اهتماماته وميوله وقابليته وطباعه ومقومات الشخصية عنده في كل مرحلة ، ومتجهة نحو تفجير هذا الاهتمام في نفس الطفل وجعله المدخل الأساسي لتعليمه وتكوينه .

ويغفل بحوث علماء النفس وجهود علماء التربية أصبحت الطفولة تُمسك مرحلة وجود مهمة في ذاتها ولذاتها ، والفهم العميق لهذا الإدراك الجديد للطفولة بنى داخل الأدباء الذين يكتبون للأطفال لونا من السمرات الواعية بنوع الأدب الذي يقدم للضفائر ، فوضعوا نصب أعينهم

حين يكتبون اهتمامات كل مرحلة وسيلتها وسماها لها العاطف ر
ودراسها الخاصة بها ورصيدها اللغوي ، ومقدرتها الأدراكية ، من
فهم المعاني ، فكتبوا لها الأدب الذى يناسبها .

٢ - رغبة الكبار من الذين خلفتهم الحرب العالمية الأولى - بعد أن أتت على
الأحضر واليابس ، وحصدت الملايين من الشباب - فى أن يبدأ العالم
من جديد . والبداية الجديدة رصيدها الأطفال ، فاتجه الكتاب
والفنانون المهتم بهم بحماس شديد ، يقدمون لهم فيها أحسن للعالم الذى
لم يحافظ الكبار على السلام فيه ، وليؤكدوا لهذه القلوب الضعيفة الرقيقة
التي أزعجها الخوف والغزع من الدمار الذى حاق بهم - أن الحياة
مسترة وسيعيشونها الى أبعد أعماقها ، وعلى أيديهم تنجد الحضارات ،
وأدب الأطفال خير وسيلة تصل بها هذه الرسالة الى قلوب الصغار .
ودارت المطابع بألوان شتى منه تغذى الجوانب الروحية والأدبية
والوطنية ، تبث فيهم الإيمان بالله والوطن والإنسان ، وتعيد للأطفال
ما فقدوه من الأمن والأمان .

٣ - تكوين المجالس والجمعيات والهيئات التي ترعى مصالح الأطفال ، واتجه
بعضها إلى رعاية الجانب الثقافي والترفيهي فكان لها صلاحيات الرقابة
ونقد كل ما يتصل بالأطفال من مطبوعات (١٦) ، وإعداد تقارير بصلاحياتها
أو عدم صلاحيتها لهم والتزكية بالنشر أو التوصية بحجبها عنهم ، فأسأنا
ما خالف الناشر التوصية بادرته فنشرت وجهة نظرهما مع عرض للكتاب ونقد
له . ومن هنا كانت هذه الجمعيات كالمصفاة تنزع الكثير من المطبوعات
التي تضر بالأطفال ، أو كالتنذير تشير إلى الخطر الكامن للأطفال فى
الكلمة المنشورة .

٤ - وساعد على الازدهار كذلك ظهور دور النشر المتخصصة فى طبع ونشر
كتب الأطفال ، واكتشاف التكميك الحديث فى صناعة الكتب ، وتقديم
اللباقة والتصوير ، وانتشار المكتبات العامة ومكتبات المدارس ، وإقامة
نواد للأطفال بمكتباتها وأنشطتها المختلفة .

هذه العوامل وغيرها أعطت أدب الأطفال دفقات قوية من التطور
جعلت الأطفال يعيشون العصر الذهبى لأدبهم مستقلا عن أدب الكبار الذى أخذ
يحاشي الكتابة والبأس والتشاؤم حتى فى عصر السلام ، لما يراود الكبار من شك فى
حياة أسهل لهذا العالم ، ولما يدركون من أنهم يعيشون مهددين دائما بالدمار .

والشعطف الثالث بعد الحرب العالمية الثانية ، وكان اهتمام الحالم المتمدن قد بلغ أشده برفع مستوى التعليم الألمان وجعله مرحلة توجه فيها المناهضة الى نمو الطفل في جميع النواحي العقلية والبدنية والمالية والنفسية والاجتماعية ، ومن ثم زادت الرغبة في الارتقاء بمستوى مدرسي المدارس الأولية ، وأصبح ينظر الى عمل مدرسيها نفس الدائرة التي ينظر بها لعمل مدرسي المدارس الثانوية ما أدى ببعض الدول كالولايات المتحدة الأمريكية إلى إنشاء "معاهد تعدد الفريقيين من المعلمين إعدادا متساويا ، فبعد أن أنقرضت مدارس النورمال Normal Schools فيها حوالي سنة ١٩٠٠ القرن الحالي حلت محلها كليات المعلمين Teachers Colleges ثم كثر عدد المعاهد التي تعد المعلمين من كليات للفنون الحرة Colleges of Liberal Arts لتدرس فيها البعدها جميعا ، وأقسام التربية بالجامعات Education Departments ، ومدارس للتربية بالجامعات (٣٧) Schools of Education . وفي هذه المعاهد دخل أدب الأطفال برامج الدراسة لإعداد المعلم ، وسلك طريقه ليصبح مادة علمية من المقررات الدراسية فيس في الجامعات وكليات المعلمين (٣٨) ، وحينئذ تولاه العلماء ودرسه المتخصصون دراسة علمية تحدد مصادره ، وترسم مناهجه ، وتبين أجناسه الأدبية ومقاييسها النقدية ، وتظهر مراحل تطوره ، وتوضح دوره الكبير في صنع الإنسان ونشأته (٣٩) . وهذا ليس كله أصبح أدب الأطفال فرعاً جديداً لتجار الأدب العام (٤٠) .

وإذا تتبعنا مسيرة أدب الأطفال في لغتنا المعربة نجد ، في العصور القديمة ، - كسائر اللغات - يسير متعلقا بالتراث القصص في المجتمع العربي ، يحوي في ركاياه ، ويمسح عالية عليه ويتخذ مصادره من قصص الكبار . غير أن الجانب الرسمي من المجتمع لم يلق بالاً إلى هذا اللون من الفن القصص ، ولم يقدره الرواة والمحدثون قدره ، ولم يلتفت الأدباء إلى تلبية حاجة الأطفال إلى أدب خاص بهم فينشئون لهم ما يناسبهم من فن طفولي ، ومن أجل ذلك ظلت قصص الأطفال المستمدة والمبسطة من قصص الكبار تتناقلها شفاه الجدات والأمهات والجوارى والمهنيات ، وتستوعبها ذاكرة الزمان تراناً شعبياً . والذين دونوا تراثنا الأدبي في أواخر العصر الأسوي وفي العصر العباسي وجهوا كل جهودهم إلى أدب الكبار ، ولم يستوعب انتباههم من أدب الأطفال إلا ما كان متصلاً بأدب الكبار ، أو تلك الأغنيات التي كان الكبار يرقصون بها الصغار ، وأغنيات الترقيع هذه إنما - كما سبق أن أشرنا إلى ذلك - لا تدخل في أدب الأطفال بل في أدب الكبار ، وذلك لأن معانيها - وهي فوق مستوى الصغار - تصنفها في أدب الكبار ، فهي أغان عن الطفل وليست أغان للطفل يمكن أن يفهمها بنفسه فيعبد بنفسها ومعانيها بها .

وفى عهد الجبل والاحتداد والاضمحلال التى مرت ببلادنا العربية،
 شهدت أجيال من الأطفال العرب يعانون من فقر التجربة وجدب العاطفة ونشروا -
 الخيال، وقد كانت قصصهم التى نشرت إليهم من قصص الكبار تصور ما يقاسيه المجتمع
 من الخوف والتعذيب والأرهاب والضك والمصيبة، واستمع الأطفال منها إلى حكايات
 "أبونا الفول" مع ست الحسن والجمال وقد خطفها إلى قمة الجبل وأسكنها نفس
 كهف مظلم يقوم على خدمته وتأكّل من خشاقر الأرض، و"أنا الفولة" التى تخطف
 الأطفال وتسجنهم فى السرايب الكئيبة، وقصص "جنّيات البحر" التى تخطسف
 الصيادين، و"حمام خوى خضير" الجنى المسحور فى شكل حمام يطارر أغت
 خضير الجميلة، و"السحرة" التى أكلت رب الأسرة، و"سرور" الطفلة
 الذى قدفت به زوجة أبيه فى التنوير وطبخته طعاما للضيّان (٣١) . . . وغير ذلك كثير
 من القصص الشعبية التى كانت تمارر عم أضياعها فى الصحو والنام، ولم يكن لدى
 الكبار غير ما يشبعون بها عيال الأطفال الضهور وهواظفهم المجده وتدرهمهم
 الفقيرة .

ولفتنا العربية ظلت إلى عهد قريب لغة الشقطين من أبنائها ولم تكن
 لغة المهتمين فى التعليم، فكان من المسمّر على الطفل أن يقرأ للثمة أو الاستفاد
 دون مساعدة الكبار، وعدم الاهتمام بأدب الأطفال فى بلادنا العربية نتيجة طبيعية
 لعدم اهتمام لغتنا العربية فى تاريخها الطويل بهذا النوع من الأدب، وطفلتنا
 العربى ظل محروما من الأدب الرفيع المؤلف له خاصة قرونا طويلة . والمفهمون
 بالدراسات الأدبية يدركون أنه لم يلتفت أحد إلى أدب الأطفال لا تأليفه
 ولا تربيته .

ومع نهاية القرن التاسع عشر اجتاز أدب الأطفال فى لغتنا العربية
 المتعطف الأول الذى استقل به عن أدب الكبار وخرج من رعايته، وأخذ يتفصل به
 تدريجيا من أحضان الآداب الشعبية للكبار، وبدأ يدخل مرحلة التأليف والأبداع،
 وذلك على يد الشاعر أحمد شوقى، فقد ألف عام ١٨٩٨ أغنيات وقصصا منظومة
 على ألسنة الطير والحيوان وكتبها خاصة للأطفال، فكان أول من أبدع فى اللغة
 العربية أدبا للصفار العرب مستهدفا تسليتهم وإشباعهم والترؤيع عنهم وإدخال
 السرور على قلوبهم . وهو بذلك يعد الرائد لأدب الأطفال فى لغتنا العربية
 وأول من استحدث للصفار العرب أدبا يتذوقونه ويسعدون بهماه أو قرائمه .

وسجل شوقى تجربته فى الكتابة للأطفال فىقول : "وجربت خاطرى
 فى نظم الحكايات على أسلوب "لافونتين" الشهيرة، وفى هذه المجموعة شئ من
 ذلك، نكت إذا فرغت من وضع أسطورتين أو ثلاث أجمع بأحداث المصريين وأقرأ

عليهم شيئا منها ، فيفهمون لأول وهلة ، ويأمنون إليه ، ويضحكون من أكثره ، وأنا أستبشر لذلك ، وأتفقى لو وفقنى الله لأجعل للأطفال المصريين مثلما جعل الشعراء للأطفال في البلاد المستعده ، منشورات قريبة المتناول يأخذون الحكمة والأدب من خلالها على قدر عقولهم ، والخلاصة أنى كنت ولا أزال ألقى فى الشعر على كسب طلب ، وأذهب فى فضاءه الواسع فى كل مذهب ، وهنا لا معنى إلا الشئ عيسى صديق " خليل مطران " صاحب الفن على الأدب ، والمؤلفين أسلوب الأفرنج نسي نظم الشعر حين نهج العرب ، والمأمول أننا نتعاون على إيجاد شعر للأطفال والنساء ، وأن يساعدنا سائر الأدباء والشعراء على إدراك هذه الأهمية (٣٦)

أدرك شوقي ببصيرته النافذة وإحساس الشاعر وذوق المجدد ، بعد أن اطلع على الآداب الفرنسية ورأى ثروتها الصديدة ، بعد أن اختلف إلى السراح الغنائية والتشيلية فى باريس ولندن ، وتردد على " مقهى داركور " مقر ندوة الشاعر أنرمزى " فرلين " (٣٧) ، أن فى الثقافة الغربية جديدا ينبغى أن يجرى فى أثره أدباء العربية ، وأن فى الآداب العالمية فنونا مستعده يجب أن تجد لها مكانا فى الأدب العربى ، واقتنع بأنه لابد وأن يجرب موهبته الشعرية فى هذه الفنون ليطلعهم بها الأدب العربى ، ويضيف إليه ما نقص منه ، ويستحدث فيه ما يواكب ذوقه وميله ، ومن ثم رآه طريقا جديدة فى الشعر العربى ومنها قصص الأطفال وأغانهم ، بل أصبح من أماني شوقي وآماله أن يكون للأطفال المصريين العرب أدب مكتوب باللغة العربية فى متناول عقولهم يستمتعون به على غرار أدب الأطفال الأوربيين الذى اطلع عليه فى فرنسا .

استعان شوقي على تحقيق أمنيته هذه بتدشين : وجه أحدنا إلى صديقه الشاعر خليل مطران ليتعاون فى خلق هذا اللون من الأدب للأطفال ، ويلجأ قارئ الدعوة التى وجهت إلى خليل مطران إحساس شوقي بمقدرة مطران المتفوقة على خلق هذا اللون الأدبى ، لأنه أصيل فى التجديد ، وأكمل فى التأليف به أسلوب الفرنج فى نظم الشعر حين نهج العرب . وطبعى ، وشوقى شاعر ، أن يكون ما يؤلفه من أدب للأطفال شعرا ، لكنه كان يود أن يكون للأطفال العرب أدب فى صورته الكاملة من شعر ونثر ومن ثم وجه ندائه الثانى إلى سائر الأدباء والشعراء لمساعدوا فى خلق أجناسه النوعية ، وذلك لتحقيق أمنيته شوقى كاملة .

لم تلق دعوة شوقي إلى خلق أدب للأطفال الاستجابة المرجوة من خليل مطران ، كذلك لم تجد صدى قويا عند الشعراء والأدباء المعاصرين لشوقي ، فقد شغلتهم الكتابة والنظم للكبار عن عالم الصغار ، وشغهم الخوف على مجدهم الأدبى فى مجتمع ينظر إلى أدب الأطفال آنذاك نظرة أقل ماتوصف به أنهم

[illegible]

رأيت أحاطا إلى شدة الإعجاب أن رأيت أدب الأطفال في مجلة الشرق
ش. الزبيدي - سائر كبير في ١٩٢٢ في مجلة الشرق
أدب الأطفال في مجلته الشرق "أحد شوقي" شاعر كبير كذلك ، بل أسير - سائر
السريرة في العصر الحديث ، وكتب أول مجموعة قصصية للأطفال باللغة العربية
تربو على ثلاثين قصة على السنة الحيوان والليل نظام. وقد يشير ذلك إلى أن السرا
وهم أكثر الناس شغاف في الرؤى ، وأشد حم حساسية بين حولهم قاديون على تحسن
حاجات الطفل وفهمها ، لأن العلاقة قوية بينهما ، فالشاعر الانسان يمكن في أدبائه
القل صغير ، والشاعر والطفل سرهما الخيال أكثر ما يشدهما الواقع ، وكلاهما
يسعى إلى تنعيم الواقع إلى ما يريد ، وكل ضبط يجمع في أعطفه قدرا كبيرا من
الخيال الجاهل ، والحب الدافق ، والعاطفة الغامرة ونقاء السريرة وبراءتها . ومن
ثم نجد الشاعر أقرب الناس شبيها بالأطفال ، ومن أقدرهم على دخول عالم الطفولة
الساحر ، ذلك الذي لا يعتد الداخلون إليه على العقل وحده ، بل على
الخيال والحب والعاطفة ، وقد ركيز من الشبه الوجداني ، ونصيب واف من ذكريات
الطفولة وسرورها البراءة ، وولع بقيم الحق والخير والجمال . وألصقا بهذا كله
حين تمنح بهم أخيلتهم وتقودهم إلى العالم الأسطوري المصور والمفرد في عقلم
الباطن منذ الطفولة ، يدركون ما يشد عواطف الأطفال ويثير خيالهم فيصوغونه -
إن أرادوا وتبهايت لهم الظروف - أدبا ينفع الأطفال ويؤنسهم ويدخل السرور على
قلوبهم .

أما تأخر ظهور أدب الأطفال مائتي عام ١٦٩٧ - ١٨٩٨ ، في لفتنا
الفتنة على الرغم من أحوالها وعقبات التاريخ الممعد ، وحب أهلها الوفير من
الخيال وبهيمتهم المبدعة والقادرة على صياغة القصص الجميل ، فذلك لأن أطفالنا
المصري بحاجة ، في سيرته مع التاريخ ، قد أصابت علاقته بالفن الأدبي سوء

(٦) صيغة استخدام التسمية البرندسكي (الايكولوجي) لتسمية مراكز العمران المدنية في المملكة ، لعدم توافر خرائط لكل مراكز العمران في المملكة وصيغة بل استحالة زيارة كل مراكز العمران في المملكة لاستكشاف البروفيل الحضاري لهذه المراكز العمرانية .

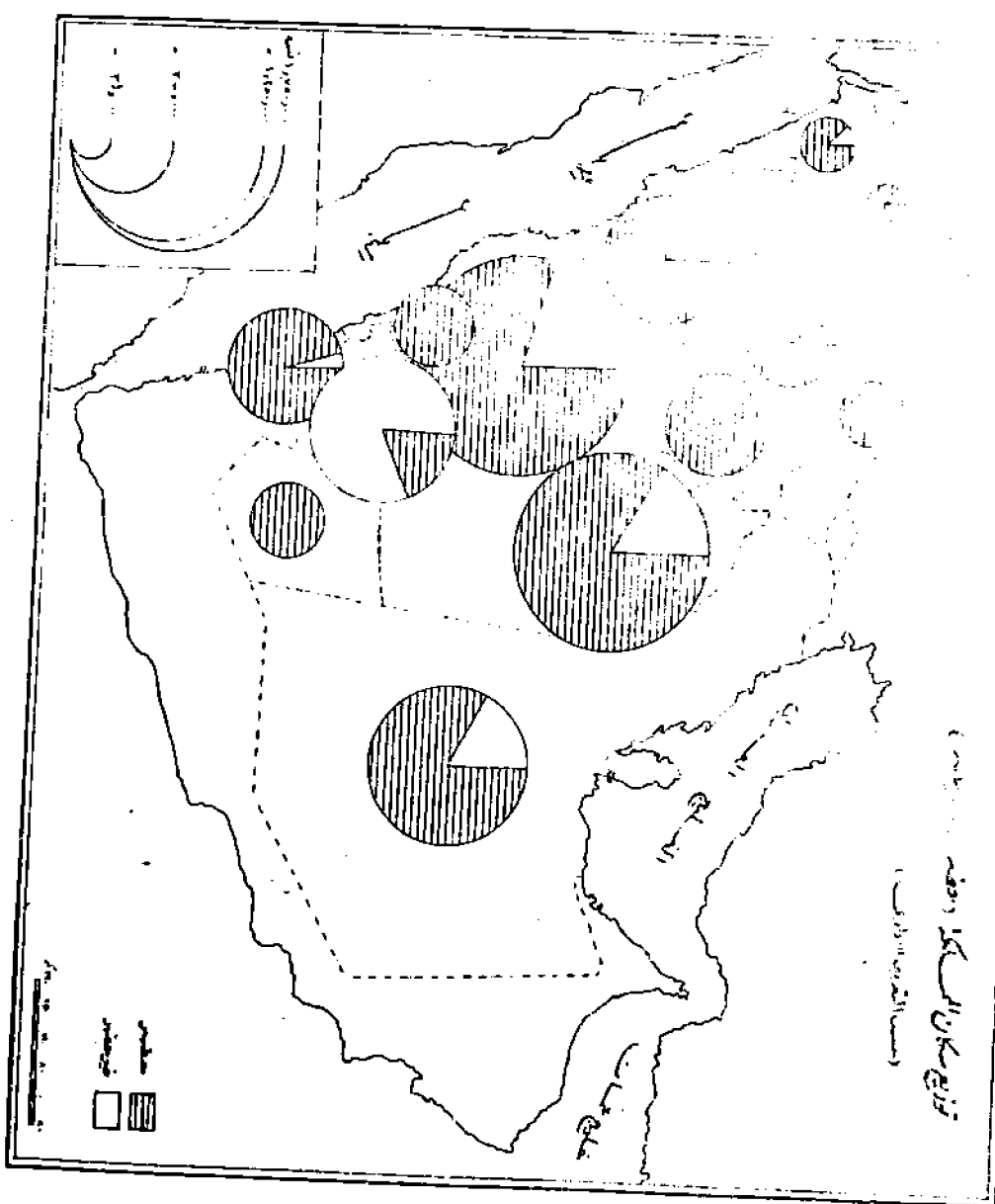
(٧) لم يتبق لنا سوى التسمية الادارية أو الحجتى التى يمكن الاعتماد عليه فى تسمية المدن السعودية ، وبالرغم من ذلك فان تطبيق ذلك لا يخلو من عدة عيوب ..

أ - لم تحدد الدولة أى أساس حجتى تبتدئ منه المدينة وما عدا ذلك يكون مراكز قروية ، كذلك لا توجد دراسات سابقة للمدن فى مناطق صحراوية مماثلة بحيث يمكن أن يحتذى حذو هذه البحوث ، وبالتالى أن تحديد أساس حجمى ستكون مجازفة من قبل الباحث .

ب - عدم وسج التسمية الادارية للتقسيمات الادارية فى المملكة . ومن المفيد أن نلقى الضوء على التقسيمات الادارية للمملكة ومقابلتها بمثيلاتها فى دول أخرى . فتتخذ المنطقة على أكبر التقسيمات الادارية فى المملكة وهي تقابل المحافظة (المدينة) ثم تاتى الامارة لتقابل مركز ، أما الامارة التابعة تقابل الناحية ، لذلك فانه يمكن أن نعرف المدن من الناحية الادارية هي عواصم المحافظات (الامارات) ومركز الامارة (عاصمة الامارة الرئيسية - المركز) هي المدن حسب التسمية الادارية فضلا عن المراكز العمرانية التى تسمى بمدينة .

ج - مما يصعب الوصول الى تعريف واضح للمدن السعودية ، أن المدن الرئيسية التى عرفها التعداد لا تخلو من سكان رحل وهذا يتناقض مع مفهوم المدينة . فعندما تبلغ نسبة السكان الرحل فى الرياض العاصمة (٢٣ ٪) وتبلغ نسبة السكان الرحل فى مدينة بيشة أكثر من ربع السكان (٢٩.٥٤ ٪) ، وتبلغ نسبة السكان الرحل فى عرعر عاصمة منطقة الحدود الشمالية ٢٤.٢ ٪ من جملة السكان . وهذه أمثلة لما رة تشارك مع مفهوم المدينة (الاستقرار المتصور) .

توزيع سكان المدن وريف
 (مساحة التقديرية بالكيلومتر المربع)



د - من المشاكل التي يعاني منها الباحث للوصول الى تعريف للمدينة في السلطنة ، ان كثير من الامارات التي تقابل المركز في مصر لا توجد لها (مركز شرطة + ادارة + بندر) وأحيانا تقل في عدد سكانها عن بنادر امارات أخرى بتفسير تصل الى أقل من ألف نسمة . فمثلا اماره (مركز) بنيان تقع في منطقة الرياض يبلغ عدد سكانها ٥٠ نسمة ، بينما بندر اماره حريملاء يبلغ عدد سكانه ٣٨٧٠ نسمة ، وهذا يشكل في الاسر التي تقوم عليها الادارة المحلية ، في السلطنة لا اختيار مركز الامارة (البندر) .

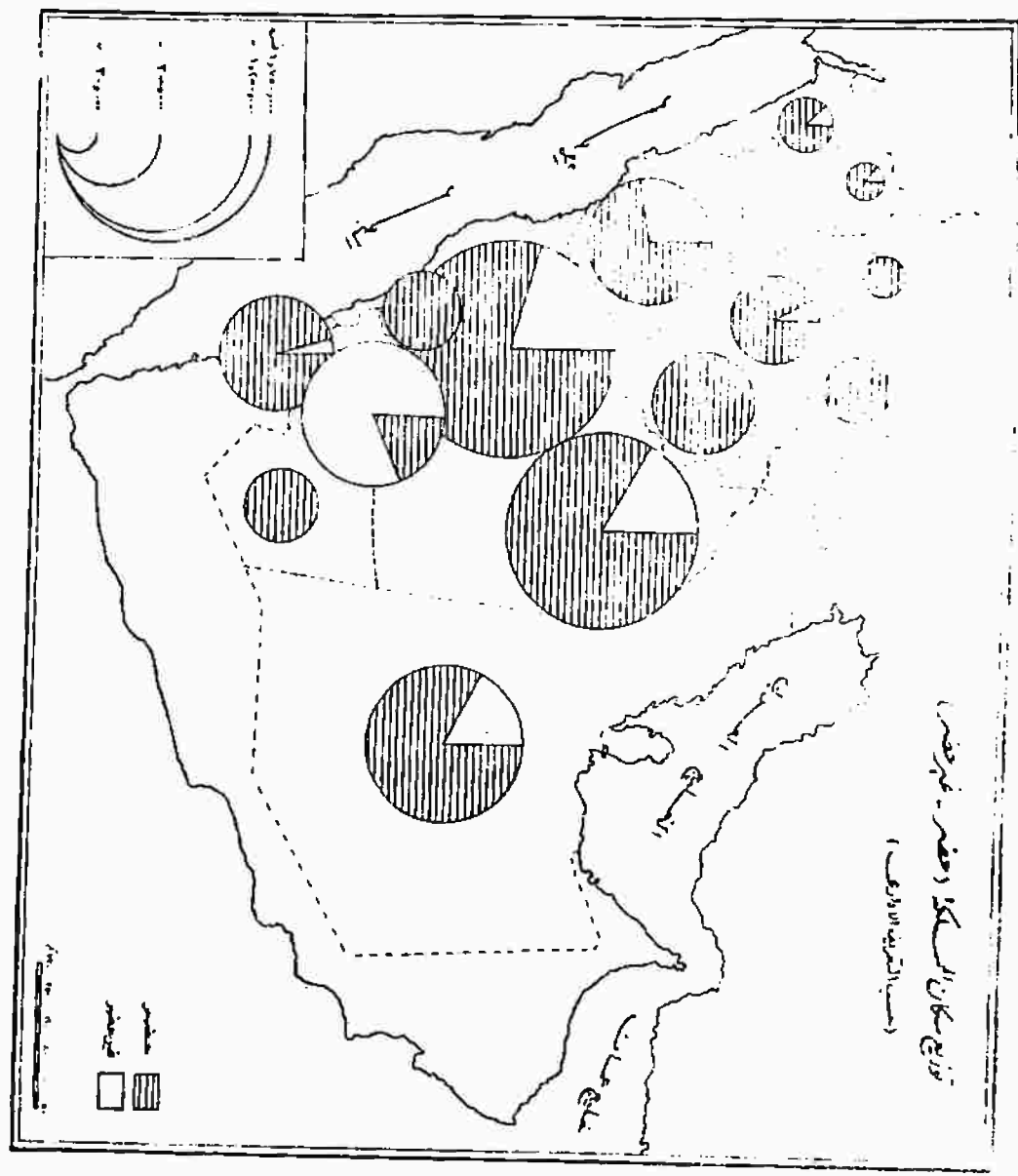
وسا سبق نخلص أننا رغم الدقبات والغموض التي يصحب التعريف الاداري ، فاننا سنعرف المدن المحدودة حسب التعريف الاداري وهي عواصم المناطق (المحافظات) ومراكز الامارات (بنادر والمراكز) ، وسنأخذ الامارة الرئيسية كمدينة ان لم يجد لها مركز اسارة .

أما التعريف الحجمي ، رغم التفاوت الكبير لعدد سكان مراكز الامارات (بنادر الامارات) والامارات هي أصغر المدن حسب التعريف الحجمي من ألف نسمة الى أكثر من ٢٠ ألف نسمة فاننا حددنا عدد ٥ آلاف نسمة كأساس لتبدأ هذه المدينة وذلك للعوامل الآتية :

(١) رقم متوسط بين الحد الأدنى للتفاوت والحد الأقصى لاصغر مدينة حسب التعريف الاداري .

(٢) يعتبر الخمسة آلاف نسمة كحد أدنى يعتبر أدنى حجم معقول لتبدأ هذه المدينة في منطقة جافة لا تتحمل مواردها أعداد كبيرة من السكان .

(٣) ان قارنا هذا الحجم بدول أخرى نجد أنه أعلى من الحد الأدنى للمدن في أمريكا وسنرى دول أوروبا رغم غنى البيئة ، كذلك يعتبر حدا معقولا يقارنته بالحد الأدنى للمدن المصرية التي تصل الى عشرة آلاف نسمة .



الاسمار الادارى :

من الجدول رقم (١) الذى يبين سكان المدن حسب التعريف الادارى
تظهر الحقائق الآتية :

• بلغت نسبة سكان المدن حسب التعريف الادارى ما يقرب من ثلاث ارباع السكان
(٧٢.٦١ ٪) من جملة السكان ، وهذه فى حد ذاتها نسبة كبيرة اذا قورنت
بمثالها فى دول أخرى ، فتبلغ نسبة سكان المدن فى مصر ٤٤ ٪ من جملة
السكان ، ويرجع هذه النسبة المرتفعة الى مجموعتين من العوامل ، اولهما
تقلص أهمية القطاع الزراعى للبيئات المتطورة وتقلص التحول من البداوة
الى الاستقرار لتزايد قسور العمل فى العواصم الادارية حيث قطاع الخدمات
والتجارة ، حيث أصبحت ممارسة الزراعى وتربى حرة غير مجزية اذا قورنت بالنسب
فى القطاع الحكيمى والخاص والبتولى^(١) ، ثانيا : قد خلق البترول سوق
واسعة للسفن فى مجالات مختلفة تتلزم بدراجات متفانية ثلاث عجلات المهاجرين
من القطاع الترويجى والزراعى .

• وتختلف نسبة سكان المدن من منطقة الى اخرى بين اجزاء المملكة ، فتبلغ أقصاها
فى المنطقة الشمالية ونجران والباحة والقصيم وجزان حيث كل السكان يقطنون
مراكز حضرية حسب التعريف الادارى . وتتراوح بين ١٢/٨٠ ٪ فى حائل الرياض
المنطقة الشرقية وثبوك والجوف والقيبات . ثم مناطق شاذ تتبادل مع النسبة
القوية مثل مكة المكرمة والمدينة ، بينما تبلغ أدناها فى عسير حيث تصل الى
١٢.٧ ٪ من جملة سكان المنطقة . يرجع الارتفاع الكبير لسكان المدن الى حدود
أن كل المكان حصر حسب التعريف الادارى فى المنطقة الشمالية ونجران
والباحة والقصيم وجزان الى قسور التعريف الادارى للمناطق الحضرية من ناحية ،
وأن كل هذه المناطق شاذ تكون جافة يشغل القطاع الزراعى بها . وترتبط
المراكز العمرانية فيها بالعيون والآبار من ناحية ثانية ، وإن عملية الترحال الرعوى

(١) من نتائج الهجرة الداخلية من البادية والريف أن هجرت العديد من القرى تماما
الى قطاعات العمل الأخرى فى المناطق الحضرية .

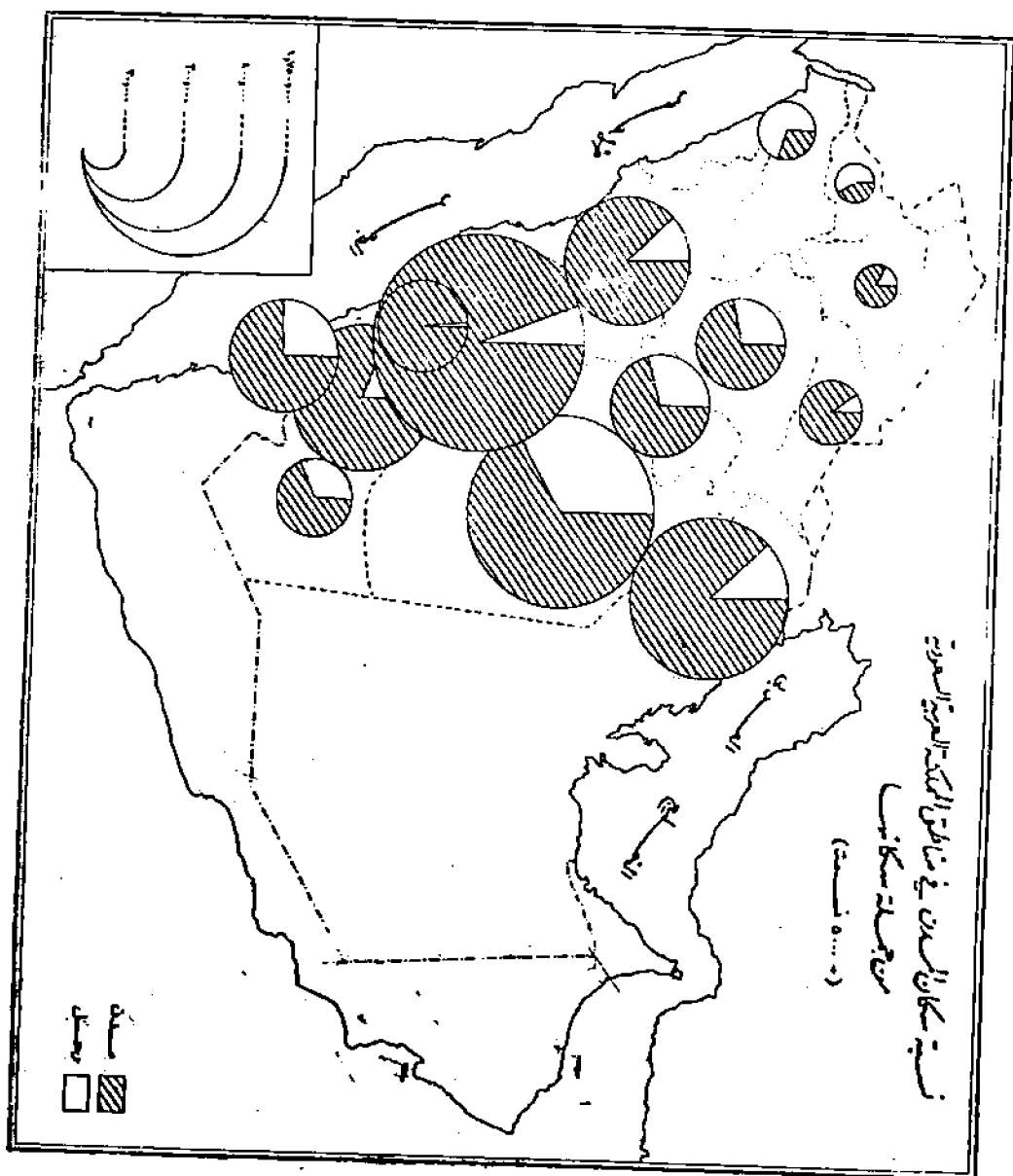
٢٠ في بعد زمني يربو ما يوهك ارتباط السكان الرجل بهذه المراكز الحضرية من ناحية ثانية ، وهذا يفسر تباين نسبة السكان الرجل بين سكان المملكة .

٢١ ويرجع الارتفاع الكبير لسكان الحضر في القريات وحائل وتبوك والجوف (من ٨٢٪ إلى ٩٢٪) الى تغير المعامل السابقة ، وان كان قد ظهر القطاع الزراعي بدرجة اقل من ذي قبل ما سمح لوجود مراكز عمرانية قديمة ما جعلها لا تتحل ١٠٠ . كالمناطق السابقة .

٢٢ وان الارتفاع الكبير لسكان الحضر في الرياض والمنطقة الشرقية (٨٣١ - ٨٢٤٪) على الترتيب يرجع الى كبر أحجام المدن وزيادة عددها من ناحية ، وازدياد القطاع البنوي والجهاز الوظيفي والخدمي للدولة ، فضلا عن عالة القطاع الزراعي ورجوع الارتفاع النسبي لسكان الحضر في منطقة مكة والمدينة المنورة من جملة السكان بحيث يعادل النسبة القوية الى الوظيفة التجارية القديمة على الدروب ، كما ترجع الى أثر التماس الديني في تضخم سكان العاصمتين فوق طاقة وشائفة المدينتين الادارية والمدنية .

٢٣ يرجع الانخفاض الكبير لنسبة سكان الحضر في اقلام عسير (١٧٢٪) من جملة سكان الاقليم الى اهمية القطاع الزراعي ما خلق مراكز استقرار ريفية .

٢٤ وتفاوت تركيب سكان المدن في المملكة بين مدن عواصم ومدن تابع (بين عواصم المحافظات وبين بنادر المراكز) ، ان يبلغ سكان المدن العواصم ٢٥٪ من جملة السكان أي ربع السكان . بينما يبلغ سكان المدن التابع ما يقرب من نصف السكان (١٧٩٧٪ من جملة السكان) . وهذه ظاهرة غير مألوفة ، ان نسبة سكان المدن عواصم المناطق في أي دولة في العالم أكثر من عدد سكان المدن التابع . ويرجع هذا في حد ذاته بصفة أساسية الى قصور التعريف الاداري نفسه تعريف سكان المدن الصغرى من ناحية ، وان نسبة كبيرة من الامارات ليست لها بنادر (مراكز الامارة) ودخلت في سكان الحضر لتكونها امارة تالية في التقسيم الاداري للمنطقة .



وتختلف نسبة أحجام المدن العواصم من مكان إلى آخر ، إذ تبلغ النسبة القوية لسكان العواصم ٢٥.٠٤ % من جملة السكان ، ولكنها تزيد نسبة سكان العاصمة عن ذلك في مناطق القرى والرياح والمدينة والجوف وضجران وتبوك والمنطقة الشمالية والتقسيم مكة المكرمة والباحة وحائل والمنطقة الشرقية بجيزان وعسير على الترتيب .
ويقف وراء اختلافات نسبة سكان العاصمة من جملة السكان من منطقة إلى أخرى مجموعة من العوامل أهمها :

- ١ - يرجع ارتفاع نسبة سكان مدينة الرياض ، لكونها العاصمة القوية حيث تعدد وظائفها الادارية - التعليمية - السياسية - الصناعية - التجارية . . . الخ .
وهذا يفسر وقوعها في المركز الثاني (نصف السكان - ٥٢.٤ %) .
- ٢ - يرجع احتلال المدينة المنورة المركز الثالث من حيث نسبة سكان المدن العواصم من جملة السكان الى تعدد الوظائف أيضا ، فضلا عن الوظيفة الادارية ، تمثل مركز ديني ، وهاتين الوظيفتين خلقا مركز تجاري موسس ما أدى الى تنخمها .
وتنطبق نفس الظروف على مدينة مكة لكن قلل من نسبتها ارتفاع نسبة سكان مدينة جدة . ما جعلها تشغل المركز التاسع بين نسب سكان العواصم .
- ٣ - يرجع ارتفاع نسبة سكان عواصم مناطق القرى والجوف وضجران وتبوك والمنطقة الشمالية والتقسيم - الى قلة السكان بصفة عامة لسادة الجفاف وبالتالي استقرار السكان في المدينة الكبيرة العاصمة وتشاغل السكان خارج المدينة .
- ٤ - يرجع انخفاض نسبة سكان عاصمة المنطقة الشرقية الى كثرة عدد المدن في المنطقة فضلا عن كبر أحجام المدن التابعة ، إذ أنه ترتفع نسبة سكان المدن عامة الى ٨٢ % حسب التعريف الاداري .
ما سبق نخلصه بأن التعريف الاداري من السلطة قاصر على تعريف المدن تعرفا واضحا ، وإن نتجهته أن بلغت نسبة سكان المدن التابع ما يقرب من نصف السكان (٤٩.٧٢ %)
ضعف نسبة سكان المدن العواصم تقريبا . وهذا ظاهرة غير مألوفة إذ تدل على تحضر ربيع ، وهذا يتناقض مع ظروف دولة نامية مثل السعودية .

جدول رقم (١) مدن المملكة حسب المرفأ اذاري (عياص / المدن التوايح) (١)

سكنة	اجال سفار السفقة سفار السفون	%	سكان المدن	المواصم	%	سكان السفون	
						النفاب	%
المدن	١,١٧٢,٢٧٥	١,٥٧,٦٤٠	٦٦,٨٤٠	٦٦,٨٤٠	% ٨٣,٦٣	٢٩٠,٨٠٠	% ٢٠,٣٧
المدن	١,٧٥٠,١٠٨	١,٣٠٥,٢٢٩	٣٦٦,٨٠١	٣٦٦,٨٠١	% ٧٤,٤	٩٣٨,٥٣٨	% ٥٣,٥
المدن	٧٢٦,٦٦٨	٦٣٤,٥٢٤	١٢٧,٨٤٤	١٢٧,٨٤٤	% ٨٢,٤	٥٠٦,٧٢٠	% ٦٥,٨
المدن	٦٨١,٢٦٦	١٢١,٢٧١	٣٠,١٥٠	٣٠,١٥٠	% ١٧,٧	٩١١,٢١١	% ١٣,٣
المدن	٥١١,٢٦٤	٣٧٥,١٥٥	١١٨,١٨٦	١١٨,١٨٦	% ٧٢,٣	١٧٧,٤٦٩	% ٣٤,١
المدن	٤٠١,١٠٦	٤٠٣,١٠٦	٣٢,٨١٢	٣٢,٨١٢	% ٨١,٤	٣٧٠,٣٩٤	% ٩١,٨٦
المدن	٣١٦,٦٤٠	٣١٦,٦٤	٦٩٩,٤٠	٦٩٩,٤٠	% ١٠٠	٢٤٦,٧٠٠	% ٧٧,٩٦
المدن	٢٥٩,٩٢١	٢٤٠,٧٥٠	٤٠٥,٠٢	٤٠٥,٠٢	% ٩٢,١	٢٠٠,٢٥٣	% ٨٣,١٨
المدن	١١٢,٧٦٣	١١٢,٤١٢	٧٤٨,٢٥	٧٤٨,٢٥	% ٨٣,٨	٨٧,٥٨٧	% ٥٣,٩٣
المدن	١٨٥,٩٠٥	١٨٥,٩٠٥	٣٢١,٠٠	٣٢١,٠٠	% ١٠٠	١٥٣,٨٠١	% ٨٢,٨
المدن	١٤٧,٩٧٠	١٤٧,٩٧٠	٤٧٥,٠١	٤٧٥,٠١	% ١٠٠	١٠٠,٤٦٩	% ٧٧,٩
المدن	١٢٨,٢٤٥	١٢٨,٧٤٥	٣٣٣,٥١	٣٣٣,٥١	% ١٠٠	٩٥٣,٩٤٠	% ٧٤,١
المدن	٦٥,٤٩٤	٥٥,٦٣١	٢٠١,٧٦	٢٠١,٧٦	% ٨٥,٠٩	٣٤٦,٥٥	% ٦٣,٢
المدن	٣١,٤٠٤	٢٦,٧٢٥	١٤٥,٨١	١٤٥,٨١	% ٨٥,١	١٢١,٤٤	% ٤٥,٤
المدن	٧,٠١٧,٦١٢	١١,٦٢,٤٢٢	١,٧٥٦,٤٠٩	١,٧٥٦,٤٠٩	% ٧٣,٦١	١,٣٦٦,٥٣٧	% ٢٥,٣٠٤

(١) تفحص وحساب وتفحص الباحث ه عن النتائج الاولية لتعداد السكان ١٩٧٤ .

المدن حسب التوزيع الجغرافي :

يشير الاسم الجغرافي للمدار الثاني المطبق لنا لتوزيع المدن السكانية ،
الجدول رقم (٢) يبين نسبة سكان المدن من جملة سكان المنطقة ونسبتها من المملكة ،
وتبين أيضا توزيع سكان المراكز الحضرية (المستوطنات البشرية) أكثر من ٥ آلاف نسمة
حسب تلك الاحجام المخططة وترتيب أهمية هذه الخصائص ، ومن هذا الجدول الشامل
نلاحظ ما يلي :

١ - تبلغ نسبة سكان المدن السعودية (أكثر من ٥ آلاف نسمة) ٨٣,٣٢ % من جملة
السكان في المملكة ، وهذه نسبة كبيرة أكبر من نسبة المدن في المملكة المتحدة
والولايات المتحدة الأمريكية ، ويجب أنها تزيد ما تقرب من ١٠ % عن نسبة سكان
المدن حسب التوزيع الإداري (٧٣,٦ %) ، وربما يميز ارتفاع هذه النسبة إلى
ما يجب أن أشيرنا إليه في عدد ارتفاعها في التوزيع الإداري وهو تظافر القطر - أع
الزوايا ودرجاتها ، ويمكن أن نشير إلى ذلك حقيقة ارتباط السكان بأحجامهم
تزيد على خمسة آلاف نسمة حول مراكز المياه في معظم أنحاء المملكة ما يحظى بالغة
كبيرة في ارتفاع نسبة سكان المدن حسب التوزيع الجغرافي ، وؤكد هذه الحقيقة
في ارتفاع نسبة سكان المدن في المملكة حسب التوزيع الجغرافي أن المملكة تعد من
مراحل التنمية الأولى كمثال للدول النامية إذا فوّرت بتقدم أوضاعها الخيرية عامسة
والولايات المتحدة الأمريكية خاصة .

وتختلف نسبة سكان المدن حسب التوزيع الجغرافي السابق (٥ آلاف نسمة) سكان
منطقة إلى أخرى :

١ - منطقة تزيد نسبتها عن ٩٠ % وهي الباحة - الرياض - مكة - الحدود الشمالية
وهي على الترتيب ، ٩٩,٢ % - ٩٧,٢ % - ٩٤,٢ % - ٩٠,٢ % من جملة
السكان في المنطقة ، وتبلغ نسبتها من جملة سكان المملكة (٢٢ % - ١٧,٦ %
- ٢٣,٦ % - ١٦ % من جملة سكان المملكة) .

٢ - مناطق تتراوح بين ٨٠ - ٩٠ % وهي منطقة جيزان - المدينة المنورة - المنطقة
الشرقية - الجوف - عسير ، وتبلغ نسبتها من جملة المناطق ٨٩,٩ % (٨٩,٩ %
٨٧,٢ % - ٨٢ % - ٨٠,٥ % من جملة سكان المنطقة ، بينما تبلغ نسبتها

من جملة سكان المملكة ٦٥١% - ٩٦% - ٧٧% - ٧٨% من جملة سكان المنطقة •

٣ - مناطق تتراوح نسبتها بين ٦٠ ٥ ٨٠% من جملة سكان المنطقة وهي نجران ٦٨٣١% - القصيم ٦٨١% ٥ بينما تبلغ نسبتها من سكان المملكة على الترتيب (١٤% - ٣٠٧% - ٤٤%) •

٤ - مناطق تقل نسبة سكان مراكز العمران أقل من ٥ آلاف نسمة عن ٦٠% من جملة سكان المنطقة وتضم منطقة القريات وتبوك وهي على الترتيب (٦٣% - ٤٤٣٠%) وتبلغ نسبتهم من جملة سكان المملكة (٢% - ١٦%) •

٥ - خلاصة سبق عدة ظاهرات هامة من عرضنا للاختلافات المكانية لنسبة سكان المدن (أكثر من ٥ آلاف نسمة) هي :

(١) تكاد تكون بعض مناطق المملكة السربية السودية حضرية ٥ مثل الباحة الرياض - مكة - الحدود الشمالية) حسب هذا التعريف •

(٢) نلاحظ أن بعض المناطق التي يرتفع فيها شأن القطاع الرعوى ٥ ترتفع نسبة سكان المدن فيها حسب التعريف الحجبي (٥ آلاف نسمة) عن ثلثي السكان ٥ وهي الحدود الشمالية (٩٠٣% - الجوف ٨٧٥٠% - نجران ٦٨٣%) وهذا يتناقض مع علو شأن الوظيفة الرعية •

(٣) كما ترتفع نسبة سكان المدن (+ ٥ آلاف نسمة) في المناطق التي تزداد أهمية القطاع الزراعي مثل مناطق الباحة (٩٩٢%) عسير (٨٥%) والقصيم (٦٨١%) وهذا يتناقض مع الوظيفة الزراعية •

وتؤكد هذه المؤشرات على عدم صلاحيه حجم ٥ آلاف نسمة لتكون أساساً للحد الأدنى للمدن المعهودة •

يصنف سكان المملكة حسب فئات الاحجام المختلفة (٥ - ١٠ - ٢٠ - ٣٠ - ٤٠ - ٥٠ ألف نسمة) كما هو في الجدول الآتي (١) نذكر بالحقائق التالية :

فئات الاحجام	العدد السكان	% من المملكة
مراكز عمرانية تزيد على ٥ آلاف نسمة	٥,١٤٨,٢٢٦	% ٨٤,٥
" " " ١٠ " " " "	٥,١٨٣,٢٠٢	% ٧٣,٩٣
" " " ٢٠ " " " "	٣,٩٩٥,٩٩٥	% ٥٦,٩
" " " ٣٠ " " " "	٣,٤٦٣,٣٣١	% ٤٩,٣
" " " ٤٠ " " " "	٢,٩٥١,٠٦٥	% ٤٢,٠٨
" " " ٥٠ " " " "	٢,٥٦٨,١٦٣	% ٣٦,٦٢

(١) تتراوح نسبة السكان حسب فئات الاحجام ٥ - ١٠ - ٢٠ ألف نسمة تبلغ ٨٤,٥ - ٧٣,٩٣ - ٥٦,٩ % من جملة السكان على الترتيب أى ما يزيد عن نصف سكان المملكة حسب هذه المعايير مدنا وهذا أمر غير مقبل في دولة نامية .

(٢) تتراوح نسبة سكان المملكة حسب فئات الحجم ٣٠ - ٤٠ - ٥٠ ألف نسمة ٤٩,٣ - ٤٢,٠٨ - ٣٦,٦٢ % من جملة السكان ، ما يجعلنا نعتق بحد صلاحية هذه المعايير الحجبية جميعا لتكون أساسا حجبيا تبدأ عنده المدينة .

ولكن أى من المعايير الحجبية (٣٠ - ٤٠ - ٥٠ ألف) في المملكة السرية المعمدية أصح لتسريف المدينة ، وهذا ما سنحاول تحديده حسب التعريف الوظيفي فبقسما لتقديرات بعض المناطق المتأخر عنها بيانات .

(١) حساب وتجميع وتصنيف الباحث عن النتائج الأولية لتعداد السكان

التعريف الوظيفي

والجدول التالي يوضح نسبة السكان المشتغلين بالزراعة وتربية الماشية مقارنة بنسبة سكان المراكز العمرانية حسب فئات الحجم . ويمكن أن نستخلص من الجدول :

النسبة ٥٠٠+	الفئة ٤٠+	الفئة ٣٠+	نسبة السكان المشتغلين (١) بالزراعة والرعي	المنطقة
% ٤٥,٧	% ٥٧,٤٠	% ٥٨,١٥	٣٨,٦	المنطقة الوسطى
% ٥٥,٢	% ٦٢,٤	% ٨٣,٢	٢٧,٨	المنطقة الشرقية
—	% ١٦,١٥	% ٤٧,٢٥	٦٤,٧	المنطقة الشمالية
% ٥٥,٨	—	% ٤,٧	٢٦,٥	المنطقة الغربية
% ٤,٣	% ٢٤,٨	% ٤٩,٦٥	٧٤,٤	المنطقة الجنوبية
% ٣٦,٦٢	% ٤٢,٠٨	% ٤٩,٣	٤٦,٢	الجملة

عدة حقائق تحدد بصفة عامة الحجم الأدنى التي تبدأ عنده المركز العمراني ليكون مدينة في المملكة العربية السعودية :

• تبلغ نسبة السكان المشتغلين في القطاعات غير الزراعية والرعي ٥٣,٨% من جملة السكان المأولين في المملكة العربية السعودية وهي أكثر قليلا من نصف سكان المملكة .

• ونظرا لأن المدينة هي التي يشتغل نصف سكانها على الأقل بمهن غير زراعية ورعية ، فإن نسبة سكان المدن يجب في أن تماثل هذه النسبة من الناحية الوظيفية ، وإذا نظرنا إلى الجدول السابق ، يضح أن نسبة سكان المدن الأقرب إلى نسبة السكان الغير العاملين بالزراعة والرعي ٤٩,٣% (غير زراعي ٥٣,٨%) عند مستوى الحجم الأدنى ٣٠ ألف نسمة .

(١) تقدير كثره تابع وأوزك ، مشروع دراسة تخطيط المنطقة الجنوبية ، الموسع
تراهن لـ المجلد ١ - ١٣٩٦ هـ - ص ٢١ ، الرياس ، المملكة العربية السعودية .

وإن رجعنا إلى الوراثة فالمقياس الحجس ٢٠ ألف يفصل عدد السكان إلى ما يقرب من نسبة السكان غير العاملين بالزراعة والرعى (٥٣٨ ٪) نجد أن مستوى حجم ٢٨ ألف نسمة يعطينا نسبة سكان ٥٣٩٥ ٪ من جملة السكان . وهكذا هو الحد الحجس الأدنى في تسييف مدن المملكة العربية السعودية — من الناحية الوظيفية .

وكن في الحقيقة أنه ليست نسبة السكان غير العاملين بالزراعة بالفصل سكان مدن بل يدخل في هذه النسبة السكان غير العاملين بالزراعة والرعى والمستقرين في المناطق الريفية أقل من ٢٨ ألف نسمة . وبالتالي يمكن أن نقول أن نسبة سكان المدن من جملة سكان المملكة من الناحية الوظيفية أقل من ٥٣٨ ٪ — من جملة السكان . وبالتالي سيرفع الحد الحجس السابق إلى أكثر من ٣٠ ألف نسمة أو أكثر لكي يبدأ عند المركز العمراني

يجب ألا نغفل أن المناطق الحضرية السعودية تشتمل على نمط غير محدود من السكان الرحل وكما سلف أن ذكرنا (تبلغ نسبة السكان الرحل في مدينة ييشة وعمر مثلاً على الترتيب ٢٩٥ - ٢٤٧ ٪ من جملة السكان في المدينتين) وهذا يجعلنا نرفع نسبة السكان العاملين بالزراعة والرعى في الدولة عاملة ، وبالتالي فإن نسبة السكان غير العاملين بحرف زراعية ورعية أقل بكثير من النسبة المذكورة (٥٣٩٥ ٪ من جملة السكان) . وبالتالي يجب رفع الحد الأدنى للحجس الذي يبدأ عند النسبة أكثر من ٣٠ ألف نسمة السابقة فنقول : وللرقم ٤٠ ألف نسمة رقم ملائم لذلك ، فهو يطينا نسبة سكان حمير ٤٢٠٨ ٪ — من جملة السكان .

المقدمة

تتلخص من الدراسة السابقة لتسريع المدينة السعودية النتائج التالية :

أولاً : المدينة السعودية حسب الماييمر البلدية السابقة (الإداري - الحجم - الوظيفي) تبدأ من الحد الإحصائي الحيوي ٤٠ ألف نسمة ، وعلى هذا الأسس تعتبر نسبة سكان المدن في المملكة العربية السعودية حسب هذا الحد (التي يعتبر عتبة التمايز المثلث) ٤٠.٨ % من جملة المالكات العربية السعودية ، ويأتي هذا الرقم ما تحولت إليه دراسات سكانية سابقة على أساسيات في اتجاه المملكة ^(١) وبلغت نسبة سكان الحضر في هذه الدراسات ٤٢.٠ % من جملة السكان في المملكة العربية السعودية .

ثانياً : وعلى هذا الأسس الحيوي (٤٠ ألف نسمة) يتكشف لنا أن هناك عدد من المدن التي تشر عواصم للمناطق (المحافظات) لا تبلغ الأربعين ألف نسمة مثل جيزان (٣٢٨١٢ نسمة) وأنها عاصمة منطقة عسير (٢٠١٥٠ نسمة) عرعر عاصمة الحدود الشمالية (٣٣٢٥١ نسمة) مكنا عاصمة منطقة الجوف (٢٠٦٢٦ نسمة) القريات عاصمة منطقة القريات (١٤٠٥٨١ نسمة) والثالثي وأخيراً لا تصبح مدينة حسب الأسس الوظيفي السابق رغم أنها مدن أساسية حسب التسريع الإداري .

ثالثاً : تؤكد الدراسة التحليلية السابق بوضوح أن المراكز العمرانية التي تزيد على ٤٠ ألف نسمة تعتبر مدن حسب التسريع الإداري والحجمي ومؤشرات التسريع الوظيفي هي المدن وتشرق مدينة . كما في الجدول التالي (٧)

- (١) مؤسسة دوكسيادر العالمية . المنطقة الشمالية - مخطط تخطيطي مبدئي
تحسين . ولان الراحة . المجلد ١ - رقم النشر ١٩٦٤ ، ص ٢٠٠
(٢) تجميع - أيام - تعريف الباحث - عن النتائج الأولية للتعداد ١٩٦٤

البلدية	عدد السكان	الترتيب	التصنيف الإداري	سكن مدينة ^(١)
١ الرياض	٦٦٦,٨٤٠	١	عاصمة المنطقة	مدينة
٢ جدة	٥٦١,١٠٤	٢	مركز إداري	مدينة
٣ مكة	٣٦٦,٨٠١	٣	عاصمة منطقة	مدينة
٤ الدائف	٢٠٤,٨٥٧	٤	مركز إداري	مدينة
٥ المدينة المنورة	١٩٨,١٨٦	٥	عاصمة منطقة	مدينة
٦ الدمام	١٢٧,٨٤٤	٦	عاصمة منطقة	مدينة
٧ البقيق	١٠١,٢٧١	٧	مركز إداري	مدينة
٨ القنفذ	٨٨,٦٤٨	٨	عاصمة منطقة	مدينة
٩ تبوك	٧٤,٨٢٥	٩	عاصمة منطقة	مدينة
١٠ بريدة	٦٩,٩٤٠	١٠	عاصمة منطقة	مدينة
١١ عفيف	٦٦,٢٦١	١١	إمارة تابعة	—
١٢ قنصية	٦١,٢٨٥	١٢	إمارة تابعة	—
١٣ العزيز	٥٤,٣٢٥	١٣	إمارة تابعة	مدينة
١٤ خمير مشيط	٤٩,٥٨١	١٤	مركز إمارة	مدينة
١٥ الخبر	٤٨,٨١٧	١٥	مركز إمارة	مدينة
١٦ نجران	٤٧,٥٠١	١٦	عاصمة منطقة	مدينة
١٧ الخرج	٤٢,٢٤٧	١٧	مركز إمارة	مدينة
١٨ بيشة	٤١,٥٤٠	١٨	مركز إمارة	مدينة
١٩ حائل	٤٠,٥٠٢	١٩	عاصمة منطقة	مدينة
٢٠ الداوي	٣٩,٠٤٢	٢٠	مركز إمارة	—
٢١ تربة	٣٨,١٣٨	٢١	مركز إمارة	—

(١) تسكن مدينة كما وردت في النتائج الأولية للسداد ١٩٧٤.

(٢) إمارة تابعة (قرية) * بين قرايب السداد أنه أجعلها من المدن التي تزيد على ٣٠ ألف نسمة.

* إمارات ليست بها مركز لإدارة * تباين مركز في سر

* مركز إمارة إنداد مركز، جالي وتم جمع الإقليم إلى نسمة.

رأياً : لا ساقط الى المدن السابقة التي تحددها القايير السابقة ، توجد مجموعة من المدن تحمل سميات مدينة في الناح الاولية للتعداد ١٩٧٤ . ولا شك أن الغالب اسم مدينة لا بد لها من الشكل والحياة الحضرية التي تدل المكان والحكمة أن تميزها بمسمى مدينة رغم أنها لم تبلغ الأربعين ألف نسمة هي :

٢٢	أملج	٢٣٧٢٨ نسمة	مركز إمارة - مسمى مدينة
٢٣	الوجه	١٤,٩٢٠	" " " "
٢٤	تياء	٩,٢١٩	" " " "
٢٥	عباء	٧,٢٩١	" " " "

أما : توجد مجموعة من مدن عواصم المناطق التي لم تبلغ الأربعين ألف نسمة ، ولكنها تعتبر مدن حسب التشريف الإداري ، فهي ليست بنادر للمراكز بكل عواصم مناطق ومعلمها تحمل سميات قرية بالرغم من أنها العاصمة عسدا عرعر فهي مركز إدارة الحدود الشمالية لا تحمل مسمى مدينة .

٢٦	عرعر	٣٣,٣٥١ نسمة	(مسمى مدينة)
٢٧	الباحة	٣٢,١٠٠ نسمة	(مسمى مدينة)
٢٨	ابها	٣٠,١٠٥ نسمة	(مسمى مدينة)
٢٩	سكاكا	٢٠,٩٢٦ نسمة	(مسمى مدينة)
٣٠	القرينات	١٤,٥٨١ نسمة	(مسمى مدينة)

سادساً : يمكن أن نضيف الى قائمة المدن السعودية مدينة ينبع ، رغم أنها تبلغ ١٧,٤٠٣ نسمة أي دون نصف الحد الأدنى لشريف المدينة الحجسى ، ولكنها مركز إمارة وبالتالي تميز بحقة ادارية . وتتميزها أنها أحد موانئ المملكة ، فضلاً على أنه شرع في تحويلها مركز صناعي ثقيل في المنشآت الاخيرة .

سابقا : يوصى الباحث بعدة مقترحات ، أهمها :

(١) توضيح وتلخيص الرتب الادارية للمناطق المختلفة من منطقة الى امانة الى امانة تابعة ، ان يعالج على النظام الحالي أن كثير من الامارات (المراكز) لا توجد لها مراكز ادارة (بنادر) .

(٢) يجب اطلاق تسمية مدينة على مراكز العمران المدنية الحقيقية ، اذ أحيانا يطلق على بعض مراكز العمران تسمية مدن رغم مسألة حجمها المكاني مثل نيماء (٦ آلاف نسمة) وضياء (١٠ آلاف نسمة) الوجه (١٤ ألف نسمة) الخ ، فضلا على انها مراكز الامارات .

(٣) وفي نفس الوقت لا يطلق تسمية مدينة على مدن تمثل عواصم للمناطق كبيرة مثل عرعر خاصة منطقة الحدود الشمالية ، بالرغم من أنها أكبر حجما من المدن السابقة .

(٤) وضع أسس ومعايير واضحة لتحديد المدن في السلكة وتطبيقها حسب التعريفات المختلفة كالاسماء الادارية والاسماء الحجي والاسماء الوظيفي ... الخ .

العمران في المشرق العربي في القرن السادس الهجري
(قراءة في رحلة ابن جبير)

دكتورة / نوال محمد عبد الله

الرحلة والرحالة :

أما الرحلة فهي إحدى رحلات الحج ، وتحصيل العلم ، التي قام بها الكثير من العلماء والكتاب من المغرب إلى المشرق العربي ، وقد رأى صاحبها -
ابو الحسين محمد بن أحمد الكاتبي والمصروف بأحمد بن جبير - تدوينها في شكل
مذكرات لتكون دليلاً لقومه في رحلاتهم ، متبعاً في ذلك طريق أبو بكر بن محمد
العري الذي دون رحلته في القرن الخامس الهجري . وقد دون أحمد بن جبير
الجزء الأول منها والذي يختص ببلاد الأندلس باختصار شديد ، ثم بدأ بفصل
الكلام من بعد ركوته البحر من حبه ، حتى عودته مرة ثانية إلى بلده .

وتعتبر هذه الرحلة التي قد تأخذ اسم " تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار " من أفضل نماذج رحلات النهاية ، لصاليتها ، وحدتها ، ومعالجة أسلوبها ،
ولما كانت على شكل مذكرات يومية فإن المعلومات التي تأتي بها تتبع خط الرحلة ،
وأهم ما يميزها هو رغم أنها من أدب الرحلات - فلة الانطباعات الذاتية فيها
إذا قورنت برحلات أخرى ، ثم الملاحظة الدقيقة لكثير من المظاهر ، والعقائد بين
ما يراه ويوجد له نظيراً في موطنه ، وهو إلى جانب اعتماده بالمشاهد والمسرايات
ومجالس العلماء ، ووصفه الفصل للحرم الكبي والمجد النبوي ، يبدى اهتماماً
ماتلاً بالعمران في مختلف أشكاله في هذه المنطقة فيتحدث عن المدن ، والقرى ،
ومراكز الاستيطان الصغيرة على طول طرق الرحلة . وتحظى المدن من بين كـل
هذه الظواهر بقدر كبير من اعتماده ولعل نشأة الحضرة من ناحية ، وتنوع وتمنـد
ظواهر المدن من ناحية أخرى كانا سبباً في هذه الخطوة ، وجديراً بالذكر
أن الناس لا تلقى مثل هذا الاهتمام عند أحمد بن جبير ، وتظهر الانطباعات
الذاتية في الأجزاء المتأخرة التي يأتي ذكرهم فيها .

وإذا قيل إن القرن الرابع الهجري يمثل قمة ازدهار العمارة العربية ، فسيان
العمران كان لا يزال في تطور حتى القرن السادس الهجري ، ما دعا إلى ظهور
مزيد من الكلمات القديمة بدلولات جديدة لتلائم أشكالاً من العمارة لم تكن لها
تسميات من قبل ، كما جدد أنواع من العمارة لتلبية حاجات الناس .

وتلقى رحلة ابن جبير ضوءاً على العمران في المشرق العربي في عدة اتجاهات ،

- ١- تعدد الكلمات المستخدمة للدلالة على العمران ومراكز الاستيطان في القرن السادس الهجري ، وتغير مدلولات بعض الكلمات التي كانت مستخدمة مسبقاً قبل .
- ٢- مكونات وحياة ووضع المدن المختلفة في اقطار المشرق العربي .
- ٣- الريف والقرى .
- ٤- غنى الحج والتجارة .

(١) تعدد مدلولات العمران واتساع مفهوم المدينة

بمقارنة الكلمات الدالة على الاستيطان والتي استخدمها ابن جبير في مذكراته بتلك التي وردت في القرن الرابع الهجري عند الجغرافيين من أمثال القندسسي وابن حوقل نجد غنى في هذه الكلمات ، فبينما كانت كلمة " القرية " و " المدينة " هما المستخدمتان حتى القرن الرابع الهجري للدلالة على مستويات الاستيطان نجد ابن جبير - في القرن السادس الهجري - يستخدم كلمات أخرى إلى جانب هاتين الكلمتين مثل البلدة والمحلة . فالبلدة أصبحت تعني - إلى جانب معناها اللغوي المعروف - مرتبة من الاستيطان تقع بين القرية والمدينة . وهي المرتبة التي احتار كل من القندسسي وابن حوقل في تسميتها ، فيقول عنها القندسسي " غير أنه لما لم يكن لها قوة المدن في الأئسين ولا ضعف القرى في الخصول وتردد امرها بين المرتبتين وجب أن تستظهر بذكرها وتبين مواضعها " (١) ، وقس على ذلك يقول ابن حوقل " مدينة صغيرة كالقرية تعرف بسجد إبراهيم " (٢) ، على حين نجد ابن جبير يسمي هذه المرتبة فيقول " بلدة بزاعة تصغر عن المدن وتكبر عن القرى " (٣) ، وقد شاع هذا الاستخدام بعد ذلك ، فنجد كلاماً من ياقوت الحموي والقزويني في القرنين التاليين يستخدمان كلمتي بلدة وبلدية لمراكز الاستيطان عبر الزراعة مثل محطات خدمة القوافل .

(١) القندسسي : أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، الطبعة الثانية ، سنة ١١٠٦ ، ص ١٢٦ .

(٢) ابن حوقل : كتاب صورة الأرض ، ص ١٥٨ .

(٣) ابن جبير : رحلة ابن جبير (تحقيق حسين نصار) القاهرة سنة ١٣٢٤ هـ (سنة ١٩٥٥ م) ، ص ١٢٧ .

كذلك ظهر عند ابن جبير استخدام كلمة المحلة بمعنى القوم من المدينة حيث يقول عن بغداد : وعارة الجانب الشرقى محدثة لكنه مع استيلاء الخراب عليه يحتوى على سبع عشرة محلة * (١) وقد جاءت هذه الكلمة بدل كلمة الخطة التى كان يعنى بها القوم من المدينة حسب نزول الفباثل ، وإذا رجعنا الى كلمة المحلة وجدنا انها تعنى لغويا * مائة بيت * (٢) ما يدل على ان اقسام المدينة لم يعد ينظر لها نظرة قبلية موانع هي تقسم على اساس مجموعات من البيوت لا على اساس نزول الفباثل ، ما ينشئ عن اختفاء النزعة القبلية فى المدن ، واندماج العرب مع السكان الاصليين ، وان كان هذا الاستخدام لا يعنى اختفاء كلمة الخطة نفسها فقد استمر استخدامها لفترة طويلة بعد ذلك .

أما عن اتساع مفهوم بعض كلمات الممران فيظهر فى مدلول كلمة * المدينة * فقد كاد ان تختفى كلمتا الممر والمقبة ، وتضال استخدامها ، فكلمة الممر جاءت على التسطاط وحدها حيث يقول * ثم منها (اى القاهرة) الى مصر الحروسة . . . وكان نزولنا فى مصر بغدادى ابنى التتار . فى رفاق القناديل بقرصة من جامع عمرو بن العاص * (٣) ، أما بقية الامصار والقنباث فيذكرها بكلمة مدينة مثل مدينة دمشق ، ومدينة مكة ، واختفت كلمة المقبة من كتابته ، ويبدو ان ما ذكره القندسى من استخدام العامة لكلمة المدينة لجميع درجات المدن دون تمييز قسده اصبح لغة العصر فى القرن السادس الهجرى .

تمت تغير آخر طرا على مدلول كلمة المدينة فهى لم تعد تعنى المكنن الذى يحتوى على شهر ، وانما كل سكن يقوم بنفس الدور الذى تقوم به المدينة فى دار الاسلام حتى وان كان خارجها ، فقد اطلق اللفظ على كل من بلاطة وعكما وصور ومدينة وكلها فى يد المسيحيين ، فكان الكلمة اصبحت ترتبط بمدن توفى خدمات معينة ، ويبدو ادراك ابن جبير لهذا المدلول من اضافته صفة المدينة على عذاب وصفة القرية على جدة مع ان كلا منهما مينا على ساحل بحر واحمد وتغايها فى المظهر العام ، ولكن اختلاف الدور الذى تقوم به كل من عذاب وجدة

(١) ابن جبير : المرجع السابق ، ص ٢١١ .

(٢) الفيروز ابادى : نايوس المحيط ، الطبعة الثانية ، حنة ١٣٧١ هـ (١٦٥٢) .
ص ٣٧١ .

(٣) ابن جبير : نفس المرجع ، ص ١٢ .

هو الذي جعله بحسب هذا الفارق .

(٦) مكونات مدن الشرق العربي في القرن السادس الهجري

من خلال عرض ابن جبير للمدن التي توفد أو مربها في اقطار الشرق العربي - مصر والحجاز والعراق والشام - نتبين ان المؤسسات التي تشكل ركائز المدن الاسلامية والعربية بالذات ظلت موجودة مع ظهور مجوعة جديدة اختصت بها مدن الشرق العربي بالذات . واول هذه المكونات هو السوق ، وهو معلم قديم قدم مدن هذا الجزء من العالم ، ولكنه في القرن السادس الهجري اصبح جزءا عاما في كثير من مدن الشرق العربي لمرضى العديد منها للمجمعات سواء من الصليبيين أو من الامراء المتأخرين وكانت اسوار هذه المدن المعرضة للهجمات ضخمة من الحجارة ذات الابرار ولها بوابات ضخمة من الحديد كما في حلب وحماة وحمص وعكا ، أما في بقية المدن فقد تهدم بعضها واختفى البقية الآخر وهي في غالبيتها من الطين كما في اموار معظم مدن مصر والعراق ، وعلى كل حال فان الاسوار في هذا القرن لم تعد تنعكس دور الفصل بين المدينة والريف فقد زحفت غالبية المدن خارج اسوارها وتجاوزتها بحيث اصبح للمدينة ^{الرس}الريف . كما نرى الموصل وسفداد ودمشق وقوص وغيرها ، وكانت هذه الاراضي تحتوي على المساجد والجوامع والخانات والاسواق والمدارس والرباطات والقصور وغيرها .

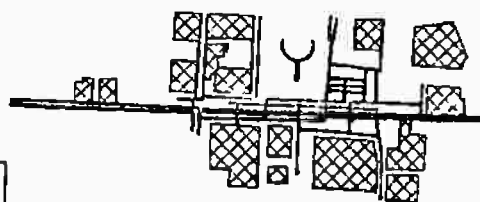
اما الجامع فقد ظل من مكونات المدينة العربية ولكنه لم يعد جاعا وحيدا تميز به المدينة وانما زاد عدد الجوامع مع اتعا المدن وزيادة عدد المسلمين ، فقامت في اجزاء المدينة البعيدة وحتى خارجها ، وجدد بالذات ان الجوامع في هذا القرن لم تعد قاصرة على المدن فظهرت في القرى البهاة مثل لندنة (لخطا) في مصر ومصر في العراق والنيروبية والمزة قرب دمشق ، كذلك توزعت المساجد في ارجاء المدينة ، وزادت اعدادها حتى ان ابن جبير قد اوصفها الى اعداد كبيرة كما في الامكندرية وسفداد ، وقد اصبحت المدارس من معالم مدن الشرق العربي في هذا القرن ويمكن ملاحظة ذلك من مقارنة وصف المدن عند القديس في القرن الرابع الهجري وعند ابن جبير في القرن السادس الهجري وقد ارتبط بعض هذه المدارس بالجوامع والمساجد وقام البعض الآخر منفردا .

ارتبطت السوق كذلك بالجامع الرئيسي (شكل ١) وقد اتخذت كما يتضح



- ① الجامع الكبير
② السوق المركزي
مواقع بوابان الدماموس على

شكل ١-٢. المخططات الأساسية لمدن الشرق العربي كما تظهر في جلد القديمة عنه :
P. Beaumont (1976), The Middle East.



- ٢ الجامع الكبير
المنارات
الشوارع البقوفة
الشوارع المشرقة

شكل ١-٣. تفصيل لسوق المركزي فيه
K. Dettmann (1969), Damascus.

متر

من وصف ابن جبير لها في عديد من المدن اشكالا متعددة فتحيط به هاليز الجامع وتمتد الى ما بعد ها كما في سوق دمشق حيث يقول " ود هليز الباب العريسي فيه حوانيت البنالين والعطارين وفيه سباط لببيع الدواكه " ٠٠٠ وعن د هليز شان يقول " ٠٠٠ وفيه حوانيت للخززين " (١) ، بل ان السوق قد تصل الى حصرم الجامع كما في سوق المسجد الحرام حيث يقول " وفي ايام الموسم كلها عاد المسجد الحرام - نزوة الله وشرفه - سوقا عظيمة يباع فيه من الدقيق الى العنبيس ومن البر الى الدر الى غير ذلك من الملح " وقد تتسع مساحة هذه الاسواق وتمتد كما في سوق دمشق التي كانت تمتد من باب شرقي حتى باب الجابية في المغرب ، وهي تتميز بتخصص كل جزء منها بحرفة من الحرف او تجارة معينة فنرى حليسب مثلا " ٠٠٠٠ متصلة الانتظام مستطيلة ، تخرج من سباط صنعة الى سباط صنعة اخرى الى ان تغرق من جميع الصناعات المدنية " ، كذلك تميزت معظم الاسواق بتتبعها بالخشب ، كما كانت قنصاريات احدى معالمها البارزة وكان بعضها يرتفع عدة طيقات تحتل الحوانيت الخاليق الارضى والمخازن واماكن البيت الادوار الاخرى .

كذلك اختلف من الجامع بعض الفنادق ، كما لاحظنا في الصلطا ومنها في جامع دمشق فيقول عن احدى الهاليز فيه " ٠٠٠ وعليها شوارع اخرى مستطيلة فيها الحجر والبيوت للكرام مشرفة على الهاليز " (٢) هذا وان ظهرت مجبوة اخرى منها قرب البوابات الهامة وخارجها مرتبطة بمحطات المسافرين ، كذلك حفلت مدن المشرق العربي بالحمامات وكانت تنافس المساجد من كثرة عددها ، ومن الملاحظات المرفقة ان حمامات بغداد كانت تدعى بالقار الذي يتوفر فيها منها بيرة لمبيعة في بعض العيون المنيقة على سطح الارض ، كذلك من ابرز مكونات مدن المشرق العربي المارستانات والزوايا والرباطات والخوانس .

اما القلاع فلم نواردها الا لانها كانت اكثر وجودا في الشام و شمال العراق ، اما في مصر فلم يكن هناك الا قلعة صلاح الدين في القاهرة ، وقد بناها متأثرا بالقلاع في مملكة الاول ، كذلك لا يأتي ذكرها في الجزيرة العربية ، انما هناك حصون متناثرة عديدة في مواقع مختلفة من شرق الحج ، وجدد يربا لذكر

(١) ابن جبير : المرجع السابق ، ص ٢٥٩ ، ص ٢٥٢ .

(٢) ابن جبير : المرجع السابق ، ص ٢٤٠ ، ص ١٣ .

انه بينما كانت الحصون للدفاع فى المناطق الريفية فى الشام ، فان دورها قسوى
المناطق التى تحتيد الصليبيين كان مختلفا عن دور الحصون العربية ومما شحنا
لدور الحصون الاوروبية فى العصور الوسطى ، اى للهيئة والهيطرة ، فكان كسمل
حصن يحيل على مجموعة من القرى تدفع فى دائرة نفوذ .

اما الدور التى يكتفها الاغالى فيهم من كلام ابن جبير انها كانت من
الاجر فى العراق ، ومن الطين والقصب فى مدن الشام ومصر ، وكانت هذه الحصون
ترتفع الى عدة طوابق فى دمشق والاسكندرية والقسطاط . وهو ما يؤيد وصف
كل من ابن حوقل فى القرن الرابع الهجرى وناصر خسرو فى القرن الخامس الهجرى
للقسطاط . (١)

(٣) حياة المدينة

لا يدى ابن جبير اهتماما كبيرا بسكان المدن ولا يذكرهم الا فى مواضع
متفرقة ، واكثر من يهتم بذكرهم من مكان المدن بخاصة جماعات المنارة ، ونخلص
من كلامه ان مدن المشرق العربى كانت تجم باعداد مختلفة من البشر وخاصة
مراكز العلم المشهورة او الواقعة منها على طرق الانتقال البرية والبحرية ، فشمالا
يصف قوص " كثيرة الخلق لكثرة الصادر والوارد من الحجاج ، والتجار اليمنييين
والهنديين وتجار ارض الحبشة " (٢) ومن ثم فقد انتشرت الفنادق والخانات
فى هذه المدن ، كما كانت هناك جماعات اخرى تقيم لعنات لمولة او اقامة دائمة
فى بعض هذه المدن لطلب العلم والتعبد ولهذا كثرت اماكن الايواء الجانبية
فى المدارس والمساجد والنوايا والرباعيات ، بل اقيمت لهم الحمامات والارستانات
كما كان الحال فى الاسكندرية .

وكانت مدن المشرق تقدم الخدمات التعليمية والصحية لسكانها . من
دلال مؤسستها التى سبق الاشارة اليها كالمساجد والمدارس والارستانات
والحمامات وكانت توفى عليها الاوقاف من اراض او عقارات ، ونمشتف من حديث
ابن جبير ان الارستانات لم تكن معروفة فى المغرب حتى ذلك الحين حيث يقول :

(١) ابن حوقل : المرجع السابق ، ص ١٤٦ ، ناصر خسرو : مكنانة (نقلها
للربية يحيى الخشاب) ، بيروت ، ص ٩٠ ، ١٠١ .

(٢) ابن جبير : نفس المرجع ، ص ٣٢ .

* وسألنا أحد الاشياخ بهذه البلدة : هل فيها مارستان على رسم مدن هذه الجهات * (١)

كذلك تعرض ابن جبير في حديثه عن كل مدينة لطريقة حصولها على مياه الشرب ومنها نتيين أن حتمية وجود المركز السكنى قريبا من الماء لم تحقق حتى في هذه العصور ، وفي تلك المناطق الجافة وشبه الجافة ، فرغم أن الكثير من أكمدين كان يقع قريبا من مجارى مائية او عيون ماء ، قد كانت هناك مدن أخرى تحصل على المياه من الابار المحفورة مثل شبيج وككة ، والبعض الآخر ينقر خزانات فسي الصخر لتتلى بمياه الامطار كما في جدة ، كما كانت هناك قلة من المدن تحصلت قانون ارتباط المدينة بورد الماء فكانت تجلب الماء من مناطق تبعد عنها كما هو الحال في حمص وبيضا وحران (شكل ٢) .

٤ احوال مدن الشرق العربي في القرن السادس الهجري

نخلص من مذكرات ابن جبيران مدن الشرق العربي قد تفاوتت احوالها وازدهارها تبعاً للتأثير الواقعة فيها ، فبالنسبة لمصر تظهر الاسكندرية في القرن السادس الهجري مدينة ذات حركة ونشاط ، وتهدد وقد استعادت جزاً من حيويتها القديمة التي فقدتها بعد الفتح العربي ، فكانت اسواقها تمتد لفنود المنسج اليها من البحر ، ولعل ابلغ عبارة وصفها بها ابن جبير تبين نشاطها كعنا قوله : .. ومن الغريب ايضا في احوال هذا البلد تصرف الناس فيه بالليل كتصرفهم بالنهار في جميع احوالهم * (٢) وهذا هو حال كثير من الرائي حتى الوقت الحاضر ، حيث ينشط السكان وتفتح المتاجر بمجرد وصول السفن ، كما كانت مقصدا للمغاربة من البر ، وقد نوه ابن جبير بحماماتها الكثيرة ووجود مارستان بها ويؤيده في هذا القول الوزير الايوبي المعاصر له الاحمد بن ماضي حيث يقول : الثغور المحروسة اسكندرية دياط تيس رشيد عذاب والاسكندرية اعظمها قدرا وافخمها امرا واكثرها ارتفاعا * (٣) ، أما القسطنطينية التي كانت قد حلت الاسكندرية مركزها في القرن الاول الهجري - فقد كانت تعاني من

(١) ابن جبير : نفس المرجع ، ص ٢٤٦ .

(٢) ابن جبير : رحلة ابن جبير ص ١٢ .

(٣) الاحمد بن ماضي : قوانين الدواوين ص ٣٢٦ .

مناجمة القاهرة من ناحية ومن اثار الخراب الذي أحدثته بها الحريق في سنة ٥٦٤ هـ من ناحية اخرى ، ورغم ان التصدير كان يجرى بها الا ان ابن جبير يقول عنها " ومن مدينة كبيرة والاثار القديمة حولها وعلى قمة منها ظاهرة تدل على عظمة احتفالها فيما سلف " ، ورغم ان عدد مدن مصر قد ارتفع منذ القرن الرابع الهجري فان الدلائل قد خلّت من المدن الهامة وانتشرت القرى وسبل اراضيها الزراعية بعد ان انحدرت مدنها القديمة ، في حين انتعشت مدن التمديد مثل اسيوط واخميم وفنا وتغطف وقوس لانتقال طريق التجارة والحج الى الجنوب ، ومنه تبع ذلك نمو ميناء عيذاب مرتبطا بهذا النشاط الموثق وكان لهذا التوسع المصطنع في منطقة تفتقد الظهور الملائم أثره في اختفاء هذا الجناح فيما بعد .

اما بالنسبة للحجاز ، فيبدو من وصف احمد بن جبير ان جدة كانت ثلاثى فترة انتعاش بعد نشاطها في القرن الخامس الهجري ، فبينما يصعب ناصر خسرو بأنها " مدينة كبيرة لها سور حصين " (١) نجد ابن جبير يقول عنها انها قريبة بها اثار سور قديم ، ويبدو ان فترة تدهورها لم تستمر حيث يبدو نشاطها مرة أخرى في وصف التجيبى في القرن السابع الهجري . " وسها الآن اقلاع وحط يسافر منها لليمن وسواكن وعيذاب والقلزم وغير ذلك " (٢) . اما مكة المكرمة والديانة الشريعة فقد كانت غاية الخلفاء والامراء بها ظاهرة من حيث تحويل السيول وتجديد الاسوار وتوفير المياه والعناية بالمسجد الحرام ومسجد الرسول وغيرهما من المساجد كما يذكر ابن جبير في مناقب جمال الدين ، ولكن كان من الواضح ان الدينيتين قد اصبحتا تعتمدان على التجارة خلال موسم الحج بالدرجة الاولى .

اما مدن العراق فيبدو انحدارها ولحاق الخراب باجزاء منها ويظهر ذلك في كلام ابن جبير عن الكوفة وسفداد وسمر من رأى ومنج وقسمين ورأس العين

(١) ناصر خسرو : سفرنامه (ترجمة يحيى الخشاب) ، بيروت ، (بدون سنة لمبع) ، ص ١٢٠ .

(٢) القاسم بن يوسف التجيبى : مستفاد الرحلة والاعتراف (تحقيق من المحيط منصور) تونس ، سنة ١٣٦٥ هـ ، ص ٢١٦ .

ودنيصر وحرا ن وغيرها ، ولا شك ان اقوال الدولة العباسية واستيلاء الامراء على
مخدراتها حتى ان ابن جبير يصفهم بانهم " سلاطين شتى كلوك لمواند الاندلس " (١)
ثم فساد الامن في البلاد حيث كانت قبيلة خفاجة تعيش في المنطقة ما بين الكوفة
وشمال بغداد فسادا ، بينما يسيطر الاكراد على النهرين ما بين الموصل ودنيصر ،
فقد أدى الى تدور المدن وانحدار بعضها الى مستوى الذي فيها بعد

(شكل ٢) .

اما في الشام فان دمشق تبدو من بعد ابن جبير مركزا زراعيا وتجاريا
وسائعا عاما ، وكان لوقوعها على طريق التجارة بين الشرق وموانئ البحر المتوسط
اثر في استمرار اقتصادها ، اما حلب وحماة وحصن فقد كان درسا من حصون
السليبيين حيا في مدنها وحصانها ، وقد برزت عكا في النشاط التجاري فقد
كان يتجه اليها التجار الوافدين من اليمن الى الشام وفي ذلك يقول ابن جبير
انه سافر في قافلة كبيرة من التجار المسافرين بالسلع الى عكا (٢) كما يتضح
من اتجاهاه الى ميناء صور منافسة عكا الميناء لعدا ، ومن ذلك يتضح استخدام
المسلمين لهذه الميناءين رغم هيمنة الصليبيين عليها .

٥ - الري في الشرق العربي

صلت القرون لما كانت من ميل تلحق اذربا بالمدن ، فيقال قري بغداد ، وقري
الري . وقري حلب ، وكان العربان يترقبون ازدهارها في كل من مصر والعراق والشام
فامتدات الى الزراعة ونقلت القرون الى بعضها . وحديث ابن جبير عن القسري
والايرة لير في من حديثه بن الحسن ما يذكره ليس بالكثير ، ففي مصر ينسب
بانه اعاد الاراضي المزروعة وتواصلها ، كما يتحدث بايجاز عن بعض الحاصيس
كاشم . ويذكر عباس النونية وابن استحقاق الخراج ، وفي الحجاز يتحدث عن
اشتغال الماربة بالزراعة في منطقة الطائف ولا يفته ان ينوه بدورهم في ازدهار
الري ، بل انهم ما يذكرون عن الزراعة هو حديثه عن النظام القائم

(١) ابن جبير : رحلة ابن جبير ، ص ٢٢٠ .

(٢) ابن جبير : الرحلة ص ٢٢٨ .

وانه رجعت الى الوراء فالمعيار الحميم ٣٠ ألف ينقسم عدد السكان الى ما يقرب من نسبة السكان غير العاملين بالزراعة والرعى (٥٣,٨ ٪) نجد أن مستوى حجم ٢٨ ألف نسمة يعطينا نسبة سكان ٥٣,٩٥ ٪ من جملة السكان . وهذا هو الحد الحميم الأدنى في تعريف مدن الملكة النورية السعودية من الناحية الوظيفية .

ولكن في الحقيقة انه ليست نسبة السكان غير العاملين بالزراعة بالفصل سكان مدن ، بل يدخل في هذه النسبة السكان غير العاملين بالزراعة والرعى والمستقرين في المناطق الريفية أقل من ٢٨ ألف نسمة . وبالتالي يمكن أن نقرر أن نسبة سكان المدن من جملة سكان الملكة من الناحية الوظيفية أقل من ٥٣,٨ ٪ من جملة السكان . وبالتالي سيرتفع الحد الحميم السابق الى أكثر من ٣٠ ألف نسمة ! وأكثر لكي يبدأ عند المركز العمراني

يجب ألا ننسى أن المناطق الحضرية السعودية تعتمد على نسب غير محدودة من السكان الرحل وكما سلف أن ذكرنا (تبلغ نسبة السكان الرحل في مدينة بيشة وتتراوح على الترتيب ٢٩,٥ - ٣٤,٧ ٪ من جملة السكان في المدينتين) وهذا يجعلنا نرفع نسبة السكان العاملين بالزراعة والرعى في الدولة عاملة ، وبالتالي فإن نسبة السكان غير العاملين بحرف زراعية ورعية أقل بكثير من النسبة المذكورة (٥٣,٩٥ ٪ من جملة السكان) . وبالتالي يجب رفع الحد الأدنى للحميم الذي يبدأ عند المدينة أكثر من ٣٠ ألف نسمة السابقة لتصله . والرقم ٤٠ ألف نسمة رقم ملائم لذلك فهو يعطينا نسبة سكان حصر ٤٢,٠٨ ٪ من جملة السكان .

الدراسة

تتلخص من الدراسة السابقة لتسريف المدينة السعودية النتائج التالية :

أولاً : المدينة السعودية حسب المايير النسبية السابقة (الإداري - الحبيبي - الوظيفي) تبدأ من الحد الإحصائي الحبيبي ٤٠ ألف نسمة ، وعلى هذا الأسس تصل نسبة سكان المدن في المملكة العربية السعودية حسب هذا الحد (التي يعتبر خمسة الشايف المظلة) ٤٠٨ ر ٤٠ % من جملة المملكة العربية السعودية ، ومائل هذا الرقم ما تحولت إليه دراسات سكانية سابقة على أساس بيانات في اتجاه المملكة (١) وبلغت نسبة سكان الحضر في هذه الدراسات ٤٢ ر ٤٠ % من جملة السكان في المملكة العربية السعودية .

ثانياً : وعلى هذا الأسس الحبيبي (٤٠ ألف نسمة) يتكشف لنا أن هناك عدد من المدن التي تمثل عوالم للمناطق (المحافظات) لا تبلغ الأربعين ألف نسمة مثل جيزان (٣٢٨١٢ نسمة) وأبها عاصمة منطقة عسير (٢٠١٥٠ نسمة) عرعر عاصمة الحدود الشمالية (٣٣٧٥١ نسمة) مكاء عاصمة منطقة الجوف (٢٠٦٧٦ نسمة) القريات عاصمة منطقة القريات (١٤٠٨١ نسمة) وبالتالي فإنها لا تدبج مدينة حسب الأسس الوظيفي السابق رغم أنها مدن أساسية حسب التسريف الإداري .

ثالثاً : تؤكد الدراسة التحليلية السابق موضح أن المراكز العمرانية التي تزيد على ٤٠ ألف نسمة تدبج مدن حسب التسريف الإداري والحبيبي ومؤشرات التسريف الوظيفي هي أحدر وتشترط مدينة . كما في الجدول التالي (٧)

١

(١) مؤسسة ديميدوف العالمية . المذقة الشمالية - مخطط عمران اقليمي مبرنامي تحسين الاوضاع المرحلة . المجلد ١ - رقم النشر ١٤٠٢ / ١٤٠٣ / ١٤٠٤
(٢) تبصير - تيار - تحريف الباحث - عن النتائج الأولية للتعداد ١٤٠٤

البلدية	عدد السكان	الترتيب	التصنيف الإداري	اسم البلدية ^(١)
١	٦٦٦,٨٤٠	١	عاصمة المنطقة	مدينة
٢	٥٦١,١٠٤	٢	مركز إداري	مدينة
٣	٣٦٦,٨٠١	٣	عاصمة منطقة	مدينة
٤	٢٠٤,٨٥٢	٤	مركز إداري	مدينة
٥	١٩٨,١٨٦	٥	عاصمة منطقة	مدينة
٦	١٢٢,٨٤٤	٦	عاصمة منطقة	مدينة
٧	١٠١,٢٧١	٧	مركز إداري	مدينة
٨	٨٨,٦٤٨	٨	عاصمة منطقة	مدينة
٩	٧٤,٨٢٥	٩	عاصمة منطقة	مدينة
١٠	٦٩,٩٤٠	١٠	عاصمة منطقة	مدينة
١١	٦٦,٣٦١	١١	إمارة تابعة	-
١٢	٦١,٢٨٥	١٢	إمارة تابعة	-
١٣	٥٤,٣٢٥	١٣	إمارة تابعة	قرية ^(٢)
١٤	٤٩,٥٨١	١٤	مركز إمارة	مدينة
١٥	٤٨,٨١٧	١٥	مركز إمارة	مدينة
١٦	٤٧,٥٠١	١٦	عاصمة منطقة	مدينة
١٧	٤٢,٣٤٢	١٧	مركز إمارة	مدينة
١٨	٤١,٥٤٠	١٨	مركز إمارة	مدينة
١٩	٤٠,٥٠٢	١٩	عاصمة منطقة	مدينة
٢٠	٣٩,٨٤٢	٢٠	مركز إمارة	-
٢١	٣٨,١٣٨	٢١	مركز إمارة	-

(١) تسمى مدينة كما ورد في النتائج الأولية للتعداد ١٩٧٤.

(٢) إمارة تابعة (قرية) ، ومن فرائض التعداد أنه أجعلها من المدن التي تزيد على ٢٠ ألف نسمة .

• إمارات ليست بها مركز لإدارة • تقابل مراكز في مصر
• مركز إمارة • مركز مركز، جلي • بين الإقليم الخمسة •

رابعا : بالاطاق الى المدن السابقة التي تحددها المقاييس السابقة ، توجد مجموعة من المدن تحمل سميات مدينة في النتائج الاولى للتعداد ١٩٧٤ ، ولا شك أن المثلث اسم مدينة لا بد لها من الشكل والحياة الحضرية التي تدل الكيان والحكومة أن تميزها بسمى مدينة رغم أنها لم تبلغ الأربعين ألف نسمة وهى :

٢٢	ألمج	٢٣,٧٢٨ نسمة	مركز إمارة - مسمى مدينة
٢٣	الوجه	١٤,٩٧٠	" " " "
٢٤	تيما	٩,٢١٩	" " " "
٢٥	ضبا	٧,٢٩١	" " " "

خامسا : توجد مجموعة من مدن عواصم المناطق التي لم تبلغ الأربعين ألف نسمة ، ولكنها تعتبر مدن حسب التصريف الادارى ، فهى ليست بنادى ومراكز بسل عواصم مناطق وبعضها تحمل سميات قرية بالرغم من أنها العاصمة عمدا عرعر فهى مركز ادارة الحدود الشمالية لا تحمل مسمى مدينة .

٢٦	عرعر	٣٣,٣٥١ نسمة	(مسمى مدينة)
٢٧	الباحة	٣٢,١٠٠ نسمة	(مسمى مدينة)
٢٨	ابها	٣٠,١٠٥ نسمة	(مسمى مدينة)
٢٩	مكاكا	٢٠,٩٧٦ نسمة	(مسمى مدينة)
٣٠	القرىات	١٤,٥٨١ نسمة	(مسمى مدينة)

سادسا : يمكن أن نضيف الى قائمة المدن السعودية مدينة ينبع ، رغم أنها تبلىخ ١٧,٤٠٣ نسمة أى دون نصف الحد الادنى لتصريف المدينة الحجمى ، ولكنها مركز لامارة والثالث تميز بمقعة ادارية ، وتبليها أنها احد موانى المملكة ، فضلا على انه شرعى تحويلها مركز صناعى ثقيل فى المنسبات الاخيرة .

سايلا : يوحى الباحث بعدة مقترحات ، أحدها :

- (١) توضيح وتبويب الترتيب الاداري للناطق المختلفة من منطقة الى امانة الى امانة تابعة ، اذ يعاب على النظام الحالي أن كثير من الامارات (المراكز) لا توجد لها مراكز ادارة (بنادر) .
- (٢) يجب اطلاق تسمية مدينة على مراكز العمران المدنية الحقيقية ، اذ أحيانا يطلق على بعض مراكز العمران تسمية مدن رغم شألة حجمها السكاني مثل تباه (٩ آلاف نسمة) وضباء (١٠ آلاف نسمة) الوجه (١٤ ألف نسمة) ٠٠ الخ ، فضلا على انها مراكز الامارات .
- (٣) وفي نفس الوقت لا يطلق تسمية مدينة على مدن تمثل عواصم لناطق كبيرة مثل عرعر طاصة منطقة الحدود الشمالية ، بالرغم من أنها أكبر حجما من المدن السابقة .
- (٤) وضع أسس ومعايير واضحة لتحديد المدن في السلطة وبلقاتها حسب التعريفات المختلفة كالاسمار الاداري والاسمار الحجي والاسمار الوظيفي ٠٠٠ الخ .

العمران في المشرق العربي في القرن السادس الهجري (قراءة في رحلة ابن جبير)

دكتورة / نوال محمد عبد الله

الرحلة والرحالة :

أما الرحلة فهي إحدى رحلات الحج ، وتحصيل العلم ، التي قام بها الكثير من العلماء والكتاب من المغرب إلى المشرق العربي ، وقد رأى صاحبها - أبو الحسين محمد بن أحمد الكاتبي المعروف بأحمد بن جبير - تدوينها في شكل مذكرات لتكون دليلاً لقومه في رحلتهم ، متعاً في ذلك طريق أبو بكر بن محمد العربي الذي دون رحلته في القرن الخامس الهجري . وقد دون أحمد بن جبير الجزء الأول منها والذي يختص ببلاد الأندلس باختصار شديد ، ثم بدأ بفصل الكلام من بعد ركوبه البحر من سبته ، حتى عودته مرة ثانية إلى بلده .

وتعتبر هذه الرحلة التي قد تأخذ اسم " تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار " من أفضل نماذج رحلات الصائفة ، لأصالتها ، وصدقها ، وساطعة أسلوبها ، ولما كانت على شكل مذكرات يومية فإن المعلومات التي تأتي إليها تتبع خط الرحلة ، وأهم ما يميزها هو رغم أنها من أدب الرحلات - قلقة الانطباعات الذاتية فيها - إذا قورنت برحلات أخرى ، ثم الملاحظة الدقيقة لكثير من الظاهر ، والفاخرة ببيان ما يراه ويوجد له نظيراً في موطنه ، وهو إلى جانب اهتمامه بالمشاهد والمسارعات ومجالس العلماء ، ووصفه الفصيل للحرم الكلي والمجد النبوي ، يبدى اهتماماً شاملاً بالعمران في مختلف أشكاله في هذه المنطقة فيحدث عن المدن ، والقرى ، ومراكز الاستيطان المنيعة على طول طرق الرحلة . وتحظى المدن من بين كل هذه المظاهر بقدر كبير من اهتمامه ولعل نشأة الحضرة من ناحية ، وتوسع وتمدد ظاهرات المدن من ناحية أخرى كانا سبباً في هذه الخلوة ، وجد يرباذا كـمـر أن الناس لا تلقى مثل هذا الاهتمام عند أحمد بن جبير ، وتظهر الانطباعات الذاتية في الأجزاء المتأخرة التي يأتي ذكرهم فيها .

وإذا قيل إن القرن الرابع الهجري يمثل قمة ازدهار الحضارة العربية ، فسان العمران كان لا يزال في تطور حتى القرن السادس الهجري ، ما دعا إلى ظهور مزيد من الكلمات القديمة بدلولات جديدة لتلائم أشكالاً من العمران لم تكن لها تسميات من قبل ، كما جدد أنواع من العمارة لطبية حاجات الناس .

وتلقى رحلة ابن جبير نحو ١٠ على العمران في الشرق العربي في عدة انجازات ،

١- تعدد الكلمات المستخدمة للدلالة على العمران ومراكز الاستيطان في القرن السادس الهجري ، وتغير مدلولات بعض الكلمات التي كانت مستخدمة مسبقا قبل .

٢- مكونات وحياة وضع المدن المختلفة في اقطار الشرق العربي .

٣- الريف والقرى .

٤- طرق الحج والتجارة .

(١) تعدد مدلولات العمران واتساع مفهوم المدينة

بمقارنة الكلمات الدالة على الاستيطان والتي استخدمها ابن جبير في مذكراته بتلك التي وردت في القرن الرابع الهجري عند الجغرافيين من امثال القندسسي وابن حوقل نجد غنى في هذه الكلمات ، فبينما كانت كلمتا " القرية " و " المدينة " هما المستخدمتين حتى القرن الرابع الهجري للدلالة على مستويات الاستيطان نجد ابن جبير - في القرن السادس الهجري - يستخدم كلمات اخرى الى جانب هاتين الكلمتين مثل البلدة والمحلة . فالبلدة أصبحت تعني - الى جانب معناها اللغوي المعروف - مرتبة من الاستيطان تقع بين القرية والمدينة ، وهي المرتبة التي احتار كل من القندسسي وابن حوقل في تسميتها ، فيقول عنها القندسسي " غير انه لما لم يكن لها قوة المدن في الاثين ولا ضعف القرى في الخسول وتردد امرها بين الرتبين وجبان تحتظهر بذكرها وتبين مواضعها " (١) ، وفي مثل ذلك يقول ابن حوقل : " مدينة صغيرة كالقرية تعرف بمسجد ابراهيم " (٢) ، بل حين نجد ابن جبير يسمي هذه المرتبة فيقول " بلدة بزاغة تصغر عن المدن وتكبر عن القرى " (٣) ، وقد شاع هذا الاستخدام بعد ذلك ، فنجد كلاما من ياقوت الحموي والقزويني في القرنين التاليين يستخدمان كلش بلدة وبلدية لمراكز الاستيطان غير الزراعية مثل محطات خدمة القوافل .

(١) القندسسي : احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ، الطبعة الثانية ، سنة ١٩٠٦ هـ ،

ص ١٢٦ .

(٢) ابن حوقل : كتاب صورة الارض ص ١٥٨ .

(٣) ابن جبير : رحلة ابن جبير (تحقيق حسين نصار) القاهرة سنة ١٣٧٤ هـ

(سنة ١٩٥٥ م) ص ٢٣٧ .

كذلك ظهر عند ابن جبير استخدام كلمة المحلة بمعنى القسم من المدينة حيث يقول عن بغداد : " وعمارة الجانب الشرقى محدثة لكنه مع استيلاء الخراب عليه يحتوى على سبع عشرة محلة " (١) وقد جاءت هذه الكلمة بدل كلمة الخطة التى كان يعنى بها القسم من المدينة حسب نزول القبائل ، وإذا رجعنا الى كلمة المحلة وجدنا انها تعنى لغويًا " مائة بيت " (٢) ما يدل على ان انقسام المدينة لم يعد ينظر لها نظرة قبلية ، وانما هي تقسم على اساس مجموعات من البيوت لا على اساس نزول القبائل ، ما يبين عن اختفاء النزعة القبلية فى المدن ، وانه مناسج العرب مع المكان الاصليين ، وان كان هذا الاستخدام لا يعنى اختفاء كلمة الخطة نفسها فقد استمر استخدامها لفترة طويلة بعد ذلك .

أما عن اتساع مفهوم بعض كلمات العمران فيظهر فى مدلول كلمة " المدينة " فقد كاد ان تختفى كلتا المصروا القصة ، وتضال استخدامها ، وكلمة مصر جاءت على النمط واحد ما حيث يقول " ثم ضبا (اى القاهرة) الى مصر المحروسة . . . وكان نزولنا فى مصر بغدادى ابنى التتار فى رفاق القناديل بغرسة من جامع عمرو بن العاص " (٣) ، أما بقية الاصمار والقصبات فيذكرها بكلمة مدينة مثل مدينة دمشق ، ومدينة مكة ، واختفت كلمة القصة من كتابته ، ويبدو ان ما ذكره القندى من استخدام العامة لكلمة المدينة لجميع درجات المدن دون تمييز قد اصبح لغة العصر فى القرن السادس الهجرى .

مناف تغير آخر طرأ على مدلول كلمة المدينة فهي لم تعد تعنى السكن الذى يحتوى على شهر ، وانما كل سكن يقوم بنفس الدور الذى تقوم به المدينة فى دار الاسلام حتى وان كان خارجها ، فقد اطلق اللفظ على كل من بلازة وعكا وصور وسبنة وكلها فى يد المسيحيين ، فكان الكلمة اصبحت ترتبط بمدن توفى خدمات معينة ، ويبدو ادراك ابن جبير لهذا المدلول من اضافته صفة المدينة على عذاب وصفة القرية على جدة مع ان كلا منهما ميناء على ساحل بحر واحد وتتمايزان فى المظهر العام ، ولكن اختلاف الدور الذى تقوم به كل من عذاب وجدة

(١) ابن جبير : المرجع السابق ، ص ٢١١ .

(٢) الفيروز ابادى : قاموس المحيط ، الطبعة الثانية ، سنة ١٣٢١ هـ (١٩٥٢) ، ص ٣٢١ .

(٣) ابن جبير : نفس المرجع ، ص ١٢ .

هو الذي جعله يحصر بهذا القارى .

(٦) مكونات مدن المشرق العربى فى القرن السادس الهجرى

من خلال عرض ابن جبير للمدن التى توفى أو مر بها فى اقطار المشرق العربى - مصر والحجاز والعراق والشام - نتبين ان المؤسسات التى تمثل ركائز المدن الاسلامية والعربية بالذات ظلت موجودة مع ظهور مجموعة جديدة اختصت بها مدن المشرق العربى بالذات . واول هذه المكونات هو المور ، وهو معلم قديم قدم مدن هذا الجزء من العالم ، ولكنه فى القرن السادس الهجرى اصبح جزءا عاما فى كثير من مدن المشرق العربى لتعرض العديد منها للهجمات سواء من الصليبيين أو من الامراء المتحاربين وكانت اسوار هذه المدن المعرضة للهجمات ضخمة غشقة من الحجارة ذات ابراج ولها بوابات غشقة من الحديد كما فى حلب وحماة وحماة وعكا ، أما فى بقية المدن فقد تهدم بعضها واختفى البعض الآخر وهى فى غالبيتها من الطين كما فى اسوار معظم مدن مصر والعراق ، وعلى كل حال فان الاسوار فى هذا القرن لم تعد تلعب دور الفصل بين المدينة والريف فقد زحفت غالبية المدن خارج اسوارها وتجاوزتها بحيث اصبح للمدينة ^{الريف} الرى والريف . كما فسى الموصل وسنجداد ودمشق وقوس وغيرها ، وكانت هذه الارياض تحتوى على المساجد والجوامع والخانات والاسواق والمدارس والرباطات والقصور وغيرها .

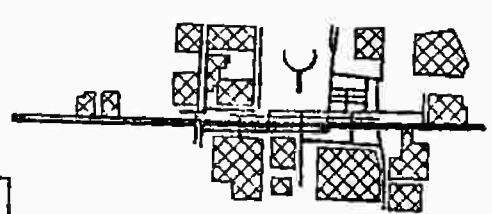
اما الجامع فقد ظل من مكونات المدينة العربية ولكنه لم يعد جامعا وحيدا تميز به المدينة وانما زاد عدد الجوامع مع اتساع المدن وزيادة عدد المسلمين . فقامت فى اجزاء المدينة البعيدة وحتى خارجها ، وجدير بالذكر ان الجوامع فى هذا القرن لم تعد قلعة على المدن فظهرت فى القرى الهامة مثل لندتيسة (غنطا) فى مصر ومصر فى العراق والدير والعزة قرب دمشق . كذلك توزعت المساجد فى ارجاء المدينة ، وزادت اعدادها حتى ان ابن جبير قد اوصفها الى اعداد كثيرة كما فى الاسكندرية وسنجداد ، وقد اصبحت المدارس من معالم مدن المشرق العربى فى هذا القرن ويمكن ملاحظة ذلك من مقارنة وصف المدن عند القديس فى القرن الرابع الهجرى وعند ابن جبير فى القرن السادس الهجرى وقد ارتبط بعض هذه المدارس بالجوامع والمساجد وقام البعض الآخر منفردا .

انهتظت الموق كذلك بالجامع الرئيسى (شكل ١) وقد اتخذت كما يتضح



- ① الجامع الكبير
- ② السوق المركزي
- ③ مواقع بربانة الصواري على

شكل ٢-١. المكونات الأساسية لمدينة دمشق القديمة كما تظهر في حلبة القديمة: P. Beaumont (1974), The Middle East.



- ٢ الجامع الكبير
- البنات
- التواريخ القديمة
- التواريخ الحديثة

شكل ٢-٢. تخطيط السوق المركزي: K. Dethmann (1969), Damascus.

١٠ متر

من وصف ابن جبير لها في عديد من المدن اشكالا متعددة فتحيط بها هاليز
الجامع وتمتد الى ما بعد ها كما في سوق دمشق حيث يقول " ود هليز الباب العريسي
فيه حوانيت البقالين والمطارين وفيه محاط لبيع التواكه " ٠٠٠ وعن د هليز ثمان
يقول " ٠٠٠ وفيه حوانيت للخزيرين " (١) ، بل ان الموق قد تصل الى حرم
الجامع كما في سوق المسجد الحرام حيث يقول " وفي ايام الموسم كلها عاد المسجد
الحرام - نزهة الله وشرفه - سوقا عظيمة يباع فيه من الدقيق الى المعبوس
ومن البر الى الدر الى غير ذلك من الملح " وقد تتسع مساحة هذه الاسواق وتمتد
كما في سوق دمشق التي كانت تمتد من باب شرقي حتى باب الجابية في المغرب ،
وهي تتميز بخصص كل جزء منها بحرمة من الحرف او تجارة معينة فمق حليز
مثلا " ٠٠٠ متصلة الانتظام مستطيلة ، تخرج من محاط صنعة الى محاط صنعة
اخرى الى ان تفرغ من جميع الصناعات المدنية " ، كذلك تميز معظم الاسواق
بتسقيفها بالخشب ، كما كانت القهصاريات احدى معالمها البارزة وكان بعضها يرتفع
عدة طبقات تحتل الحوانيت الطابق الارضي والمخازن والماكن البيت الادوار الاخرى .

كذلك اقترب من الجامع بعض القنادل ، كما لاحظنا في الصفاط ومثلها
في جامع دمشق فيقول عن احدى هاليز فيه " ٠٠٠ وعليها شوارع اخضر
متصلة فيها الحجر والبيوت للكرام مشرفة على الد هليز " (٢) هذا وان ظهرت
مجتمعة اخرى منها قرب البوابات الهامة وخارجها مرتبطة بمحطات المسافرين ،
كذلك حفلت مدن المشرق العربي بالحمامات وكانت تنافس المساجد في كثرة عدد ها ،
ومن الملاحظات المريبة ان حمامات بغداد كانت تدمن بالقار الذي يتوفر قريبا
من بصرة . ابيعية في بعض المدين المتباعدة على سطح الارض ، كذلك مسكن
اسر كونات مدن الشرق العربي المارستانات والنوايا والرباطات والخوانق .

١٠ القلاع : فمع تواتر ذكرها لا انها كانت اكثر وجودا في الشام وشمال
العراق ، كما في مصر فلم يكن هناك الا حصنة صلاح الدين في القاهرة ، وقسمت
بناها متأثرا بالقلاع في بؤسها الاول ، كذلك لا يأتى ذكرها في الجزيرة العربية
ولا هناك حصون متناثرة خردة في مواقع مختلفة من طريق الحج ، وعند بربا الدكر

(١) ابن جبير : المرجع السابق ، ص ١٥٩ ، ص ١٥٧ .

(٢) ابن جبير : المرجع السابق ، ص ٢٤٠ ، ص ١٣ .

انه بينما كانت الحصون للدفاع فى المناطق الريفية فى الشام ، فان دورها فى المناطق التى تحت يد الصليبيين كان مختلفا عن دور الحصون العربية وما شاعلا لدور الحصون الاوربية فى العصور الوسطى ، اى للهيمنة والسيطرة ، فكان كل حصن يسيطر على مجموعة من القرى تقع فى دائرة نفوذه .

اما الدور التى يسكنها الاهالى فيفهم من كلام ابن جبير انها كانت مـمن الآخر فى العراق ، ومن الطين والقصبة فى مدن الشام ومصر ، وكانت هذه الدور ترتفع الى عدة طوابق فى دمشق والاسكندرية والنسطاط . وهو ما يؤيد وصف كل من ابن حوقل فى القرن الرابع الهجرى وناصر خسرو فى القرن الخامس الهجرى للنسطاط . (١)

(٢) حياة المدينة

لا يدعى ابن جبير اهتماما كبيرا بسكان المدن ولا يذكرهم الا فى مواضع متفرقة ، واكثر من يهتم بذكرهم من سكان المدن بخاصة جماعات المغاربة ، ونخلص من كلامه ان مدن المشرق العربى كانت تجم باعداد مختلفة من البشر وخاصة مراكز العلم المشهورة او الواثمة منها على طرق الانتقال البرية والبحرية ، فمثلا يصف قوص " كثيرة الخلق لكثرة الصادر والوارد من الحجاج ، والتجار اليمنيين والهنديين وتجار ارض الحبشة " (٢) ومن ثم فقد انتشرت الفنادق والخانات فى هذه المدن ، كما كانت هناك جماعات اخرى تقيم لسنوات لمويلة او اقامة دائمة فى بعض هذه المدن لطلب العلم والتعبد ولهذا كثرت اماكن الايواء المجانية فى المدارس والمساجد والزوايا والرباطات ، بل اقيمت لهم الحمامات والارستانات كما كان الحال فى الاسكندرية .

وكانت مدن المشرق تقدم الخدمات التعليمية والصحية لسكانها - مـمن خلال مؤسساتها التى سبق الاشارة اليها كالمساجد والمدارس والارستانات والحمامات وكانت توقف عليها الاوقاف من اراض او عقارات ، ونحتشف من حديث ابن جبير ان الارستانات لم تكن معروفة فى المغرب حتى ذلك الحين حيث يقول :

(١) ابن حوقل : المرجع السابق ، ص ١٤٦ ، ناصر خسرو : سمرقانة (نقلها العربية يحيى الخشاب) ، بيروت ، ص ٩٠ ، ١٠١ .

(٢) ابن جبير : نفس المرجع ، ص ٣٧ .

" وما لنا احد الاشياخ بهذه البلدة : هل فيها مارستان على رسم مدن هذه الجهات " (١)

كذلك تعرض ابن جبير في حديثه عن كل مدينة للطريقة حصولها على مياه الشرب ومنها نثبت ان حتمية وجود المركز السكنى قريبا من الماء لم تتحقق حتمى في هذه المصوره وفي تلك المناطق الجافة وشبه الجافة ، ورغم أن الكثير من المدن كان يقع قريبا من مجارى مائية او عيون ماء ، فقد كانت هناك مدن أخرى تحصل على المياه من الابار المحفورة مثل شبيح ومكة ، والبعض الآخر ينقر خزانات فسي الصخر لتحتل مياه الامطار كما في جدة ، كما كانت هناك قلة من المدن تحددت قانون ارتباط المدينة بمورد الماء فكانت تجلب الماء من مناطق تبعد عنها كما هو الحال في حمص وبغداد وحوران (شكل ٢) .

٤ احوال مدن المشرق العربي في القرن السادس الهجرى

نخلص من مذكرات ابن جبير ان مدن المشرق العربي قد تفاوتت احوالها واضاعتها تبعاً للقاليم الواقعة فيها ، فبالنسبة لصور تظهر الاسكندرية في القرن السادس الهجرى مدينة ذات حركة ونشاط ، وتبدو وقد استعادت جزءاً من حيويتها القديمة التى فقدتها بعد الفتح العربى ، فكانت امواقها تمتلئ لفود المسكن اليها من البحر ، ولعل ابلغ عبارة وصفها بها ابن جبير تبين نشاطها كميناً قوله " . . . ومن الغرب ايضا فى احوال هذا البلد تصرف الناس فيه بالليل كتصرفهم بالنهار فى جميع احوالهم " (٢) وهذا هو حال كثير من العواصى حتى الوقت الحاضر ، حيث ينشط السكان وتفتح المتاجر بمجرد وصول السفن ، كما كانت مقصداً للمغاربة من الهر ، وقد نوه ابن جبير بحمايتها الكثيرة ووحد مارستان بها ويؤيده فى هذا القول الوزير الايوبى المعاصر له الاسعد بن سنانى حيث يتولى " الثغور المحروسة اسكندرية دمايط تميم رشيد عيذاب والاسكندرية اعظمها قدرا وافخمها امرا واكثرها ارتفاعا " (٣) ، أما السلاطون - التى كانت قد سببت الاسكندرية مركزها فى الامم الاول الهجرى - فقد كانت تعانى من

١ ابن جبيرة : نفس المرجع ، ص ٢٤٦ .

٢ ابن جبيرة : رجعت ابن جبيرة ص ١٢ .

٣ الاسعد بن سنانى : قواعد الدواوين ص ٣٢٦ .

منافسة القاهرة من ناحية ومن اثار الخراب الذي احدثه بها الحريق في سنة ٥٦٤ هـ من ناحية اخرى ، ورغم ان التدمير كان يجرى بها الا ان ابن جبير يقول عنها " وعلى مدينة كبيرة والاثار القديمة حولها وعلى قرية منها ظاهيرة تدل على عظمة اختلالها فيما حلف " ، ورغم ان عدد مدن مصر قد ارتفع منذ القرن الرابع الهجرى فان الدلتا قد خلت من المدن الهامة وانتشرت القرى وسط اراضيها الزراعية بعد ان انحدرت مدنها القديمة ، في حين انتعشت مدن الصعيد مثل اسيوط وأخميم وفنا وقفت وقوس لانتقال طريق التجارة والحج الى الجنوب ، ونسب تبع ذلك نمو ميناء عذاب مرتبطا بهذا النشاط الممتد وكان لهذا النوع المصطنع في منطقة تنعقد الظهير الملائم أثره في اختفاء هذا الميناء فيما بعد .

أما بالنسبة للحجاز ، فيبدو من وصف احمد بن جبير ان جدة كانت تلاقى فترة انقاع بعد نشاطها في القرن الخامس الهجرى ، فبينما يصفها ناصر خسرو بأنها " مدينة كبيرة لها سور حصين " (١) نجد ابن جبير يقول عنها انها قريبة بها اثار مور قديم ، ويبدو ان فترة تدورها لم تمتد حيث يبدو نشاطها مرة أخرى في وصف التجيبى في القرن السابع الهجرى . " وبها الآن اقلع وحط يسامر منها لليمن وسواكن وعذاب والقلزم وغير ذلك " (٢) . أما مكة المكرمة والمدينة المنورة فقد كانت نهاية الخلفاء والامراء بها ظاهرة من حيث تحويل السيول وتجديد الاسوار وتوفير المياه والعناية بالمسجد الحرام ومسجد الرسول وغيرها من المساجد كما يذكر ابن جبير في مناقب جمال الدين ، ولكن كان من الواضح ان المدينتين قد أصبحتا تعتمدان على التجارة خلال موسم الحج بالدرجة الاولى .

أما مدن العراق فيبدو انحدارها ولحاق الخراب باجزاء منها ويظهر ذلك في كلام ابن جبير عن الكوفة وسفداد وسر من رأى وشيخ وقنبرين ورأس العيسى

(١) ناصر خسرو : سفرنامه (ترجمة يحيى الخشاب) ، بيروت ، (بدون سنة لمبع) ، ص ١٢٠ .

(٢) القاسم بن يوسف التجيبى : مستفاد الرحلة والاعتراف (تحقيق من الخبيصظ مشور) تونس ، سنة ١٣٩٥ هـ ، ص ٢١٩ .

ودنيصر وحران وغيرها ، ولا شك أن أفول الدولة العباسية واستيلاء الأمراء على
مقدراتها حتى أن ابن جبير يصفهم بأنهم " سلاطين شتى كلوك طوائف الاندلس " (١)
ثم تباد الأمن في البلاد حيث كانت قبيلة خفاجة تعيش في المنطقة ما بين الكوفة
وشمال بغداد فساداً بيننا يحيط بالكراد على الطرق ما بين الموصل ودنيصر ،
تد أدى إلى تدور المدن وانحدار بعضها إلى مستوى القرى فيما بعد —————
(شكل ٢) .

أما في الشام فإن دمشق تبدو من بعد ابن جبير مركزاً زراعياً وتجارياً
وسائياً عاماً ، وكان لوقوعها على طريق التجارة بين الشرق وموانئ البحر المتوسط
أثر في استمرار انتعاشها ، أما حلب وحماة وحمص فقد كان مرسىها من حصون
الصليبيين سبباً في ضعفها وحصانتها ، وقد يبرز عكا في النشاط التجاري بعد
كان يتجه إليها التجار الوافدين من اليمن إلى الشام وفي ذلك يقول ابن جبير
أنه سافر في قافلة كبيرة من التجار المسافرين بالسلع إلى مكة " (٢) كما يتضح
من اتجاذه إلى ميناء صور منافسة هذا الميناء لعدكا ، ومن ذلك يتضح استخدام
المسلمين لهذه الميناءين رغم هيمنة الصليبيين عليها .

٥ - الري في المشرق العربي

ظلت القرى كما كانت من قبل تلحق إدارياً بالمدن ، فيقال قرى بغداد ، وقرى
الحمص ، وقرى حلب ، وكان المزارع الريفي مزدحماً في كل من مصر والعراق والشام
والمستعمرات الزراعية وتوالت القرى وراء بعضها . وحديث ابن جبير عن القسري
والزراعة ليس في غنى حديثه عن المدن فذكره ليس بالكثير ، ففي مصر ينسب
بانتاج الأراضي المزروعة وتواصلها ، كما يتحدث بإيجاز عن بعض المحاصيل
التي تنتج ، ويذكر مياح الرضعة وأوان استحقاق الخراج ، وفي الحجاز يتحدث عن
استثمار المزارع بالزراعة في منطقة الطائف ولا يغوته أن ينوه بدورهم في ازدهار
الزراعة فيها . ولعل أهم ما يذكروه عن الزراعة هو حديثه عن النظام القائم

١ - ابن جبير : رحلة ابن جبير ، ص ٢٢٨ .

٢ - ابن جبير : الرحلة ص ٢٢٨ .

في المناطق المشتركة بين حدود المسلمين والصليبيين حيث يشترك كلا الطرفين في الزراعة ويقتسمان المحصول بينهما ، كما يقومان بالرعى في منطقة واحدة بالاتفاق بين الطرفين ، فيقول في الحديث عن يانباي : ولها محروث واسع في بلحسا ، متصلة بشرف عليها حصن للافرنج يحس عومين بينه وبين يانباي مقدار ثلاثة فراسخ ، وعمالة تلك البلحسا بين الافرنج والمسلمين ولهم في ذلك حد يعرف بحد القاسمة فهم يشاءون العنة على استوا ، وواعيهم مختلطة ولا حيف يجرى بينهما فيها ^(١) .
ومد كان نظري على الاخرى اسوارها كما كان ليمد الغرى حصونا تحميها ، أما في منطقة الصليبيين فمد كان الحصن يستخدم للسيطرة على مجموعة الغرى الرئيسية . وكانت الغرى الكبيرة لا تخلو من مسجد ، ودرسة ، وحمام او حمامين ، كما كان هناك خان للصائرين في غرى الشام التي تقع على طرفي الفواقل ، وكانت هناك ايام معلومة للسوق في كل قرية ليتمكن لها خدمة المنطقة المحيطة بها ، حيث يؤمها الفلاحون ، كما في بزاغة ونصيبين وديسوة والجيزة وعلطا وغيرها ، وهو يقول عن سوق الجيزة مثلا : . . لها كل يوم احد سوق من الاسواق العظيمة يجتمع اليها ^(٢) .

١ - طرق الحج والتجارة

ان احد الاغراض الرئيسية من تدوين مذكرات ابن جبير هو اطلاع مواعينه على طرق الحج الى مكة المكرمة ، ووصف احوال هذه الطرق ، وما يقابلها المسافرين فيها ، ولذا حرص ابن جبير على تدوين طريق حجه وعودته ، بل انه ازجى النصح لواعنيه اي الطرق يتبعون في حجههم بعد ان مر بتجارب انقضت ، ومن وصفه لطريق حجه تنضح الحقائق الآتية :

- ١ - حيلة العنفة مرة اخرى على بعض اجزاء من الطريق بالوف الذي يرسط القاعة بشمال الحجاز عن طريق شبه جزيرة سيناء ، مما أدى الى تحصيل فوائد الحج والتجارة الى الصعيد حتى قوس ثم الى عذاب على الساحل الغربي للبحر الاحمر ومنها الى جدة على الساحل الاخر الغايل .

(١) ابن جبير : الرحلة ، ص

(٢) ابن جبير : نفس المرجع ، ص ٦٤ .

- ٢- فقدان المسلمين لسيطرتهم على البحر المتوسط ، ينطأ عادتا أوربا الى مصدر حيلاتها عليها ، ففى الذهاب والاياب كانت السفن المستخدمة تابعة لجنوة ، كما كانت السفن المارة بعضها تابع للدولة البيزنطية ، ولم يكن أى منها تابعا للمسلمين ، كذلك كان ازدهار موانئ صقلية وبعكا وصور واضحا ، ولعل ضيق المسلمين من ذلك يظهر من اختفاء تسميته ببحر الروم ، ويكتفى ابن جبير بان يذكره بالبحر بدون تعيين .
- ٣- محاولة الصليبيين مد نفوذهم فى البحر الاحمر وقيامهم باعمال القراصنة فيه وتصدى صلاح الدين لغنايمتهم .
- ٤- فقدت القلزم اهميتها كميناء اولى على البحر الاحمر خلال هذا القرن وتحولت التجارة وتحول المسافرون الى عذاب ، مما ادى الى تقلص تسمية " بحر القلزم " واستخدام ابن جبير هذه الاسماء كقوسية لهذا البحر مثل بحر فرعون ، وبحر عذاب ، وبحر جدة .
- ٥- فى نفس الوقت لم تستطع عذاب أن تنمو وتكبر بعد ان حلت محل الفلبسزم لتنفذ ما الظهير الحى الذى يماندها ، وتطرف موقعها بعيدا عن الممران .
- ٦- كانت الطريق بين قوس وعذاب قاصرة على الابار وحدها ولا عارة فيها على حد قول ابن جبير ، وقد حرص ابن جبير على تعيين مواضع الابار فى هذه الطريق وحالة مياهها ونوع بذور الطريق الاخرى التى تقع على الشمال منها وتلقى معها عند بعض الابار ويعتبر وصفه لهذه الطريق وتعيين الابار التى نرى فيها القوافل اذق وصف معروف لها ، (شكل ٣) كما ظهر غذا الحرس كذلك فى وصفه للطريق بعد الخروج من مكة متجهين الى العراق ، وكانت الاخيرة معورة فى مواضع كثير من الابار ، كما قامت الحصون عند كثير منها ، كذلك اُبنية المحافظة على ما الامطار ، وعند المارقي بين طريفين نعمان فى بيئة متشابهة يجرى من كثرة القبائل الرعوية فى شبه الجزيرة العربية ، والاعتماد بدرب الحاج من قبل كثير من الحكام فى بغداد ، ولا شك ان لوجود بيئة غنية فى وادى النيل اثر فى انجحلال النشاط الرعوى وسؤال من عرا الحياة على الطريق الصحراوى فى مصر .

- ٧- كانت طرق القوافل في كل من الحجاز والعراق والشام مهيأة لوجود قبائل تقطع الطرق من ناحية وهجمات الأكراد من ناحية أخرى ، فضلا عن المصوص من الفرنجة والعرب على السواء ، يمكن الطرق في مصر التي كانت تتمتع بالأمن .
- ٨- كانت طرق القوافل بين العراق والشام حتى ساحل الليفانت مفتوحة لقوافل المسلمين والصليبيين حتى في زمن قيام المماليك لأهمية التجارة العابرة لاقتصاد كل منهما .

خاتمة :

ان العمران احد الموضوعات الجغرافية ، التي لا نستطيع تفسير الكثير من ظواهرها الحاضرة ، الا من خلال دراسة عملية التطور التي مريبها وقد اغانست مذكرات احمد بن جبير هذه الدراسة في اتجاهين ، الاول هو الكشف عن تلامور ونوع مدلولات السكن ، بما ينهي عن استقرار الحضرة عند العرب ، وتطويعهم اللغة العربية بما يلائم واقعهم الجديد ، ونوما يحاوله الجغرافيون في العصر الحاضر ، من البحث عن كلمات للدلالة عن واقع تغير ومظاهر جديدة ومستويات العمران لم تعرف من قبل اما الاتجاه الثاني ، فهو تقديم تلك المادة الاولية الواقعة للجغرافية الاجتماعية لمنطقة المشرق العربي بعد تأصل الحضارة العربية فيه ، مما يساعد بالتالي على تفسير بعض ملامح من الشخصية الجغرافية الخاصة للمنطقة ، التي وان تميزت اقاليمها بعضها عن البعض الاخر منذ القدم ، الا أننا لا نستطيع ان ننكر ان دخول العرب اليها وانتشار الاسلام واللغة العربية فيها قد اديا الى وجود مظاهر تجمع بينها وتفرقها عن المناطق الأخرى .

د . نوال محمد عبدالله اعطاعيل

المصادر والمراجع العربية :

- ١- ابن جبير (ابو الحسن محمد ابن احمد الكتاني) : رحلة ابن جبير
(تحقيق حسين نصار) ، القاهرة ، سنة ١٩٥٥ م .
- ٢- ابن حوقل (ابو القاسم النصيب) : صورة الارض ، بيروت ، (بدون سنة
طبع) .
- ٣- ابو شامة (شهاب الدين عبد الرحمن المقدسي) : كتاب الروضتين في اخبار
الدولتين النورية والصلاحية (تحقيق محمد حلي محمد
احمد) ، ج ١ قسم ثاني ، القاهرة ، سنة ١٩٦٢ م .
- ٤- اغناطيوس كراشكوفسكي : تاريخ الادب الجغرافي العربي (ترجمة صلاح الدين
عاشم) ، القاهرة ، سنة ١٩٥٢ م .
- ٥- الاسعد بن سائى : قوانين الدواوين (جمعه وحققه عزيز سورياى عليه) ،
القاهرة ، سنة ١٩٤٣ م .
- ٦- التحبیبى (القاسم بن يوسف المبتلى) : مستفاد الرحلة والاغراب (تحقيق
عبد الحفيظ منصور) ، تونس ، سنة ١٩٢٥ م .
- ٧- الفيروز ابادى (مجد الدين بن يعقوب) : قاموس المحيط ، الطبعة الثانية ،
سنة ١٩٥٢ م .
- ٨- المقدسى (شمس الدين ابو عبدالله) : احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم
(طبعة دى خويه) ، الطبعة الثانية ، سنة ١٩٠٩ م .
- ٩- القسوس (احمد بن محمد التلمسانى) : نفع الطيب من غصن الاندلس
الوليپ (تحقيق احسان عباس) ، بيروت ، سنة ١٩٦٨ م .
- ١٠- ناصر خسرو : سفرنامه - رحلة ناصر خسرو (ترجمة يحيى الخشاب)
بيروت ، (بدون سنة طبع) .
- ١١- نوال محمد عبدالله : المدينة العربية في العصور الوسطى : الكتاب السنوى
الثالث بكلية التربية للبنات ، الرياض ، سنة ١٩٧٧ م .
- ١٢- هارى غازارد : اطلال التاريخ الاسلامى (ترجمة ابراهيم زكى خورشيد)
، القاهرة ، (بدون سنة طبع) .
- ١٣- هيام عبد الرحمن سليم : تجارة مصر الخارجية في العصور الوسطى (رسالة
دكتوراة غير منشورة) ، القاهرة ، سنة ١٩٧٢ م .
- ١٤- ياقوت الحموى (شهاب الدين ابو عبد الله) : معجم البلدان ، ج ١ ،
بيروت ، سنة ١٩٥٢ م .

العقاد بين ناقديه =

د . يوسف حسن نوفل

قال محمد مندور : في معرض حديثه - عن العقاد ناقدًا :
" والعقاد من أولئك النفر الطيل الذي يحس أن يقال فيهم ظلمًا قبل في التمس :
..... من أنه قد سلا الدنيا وشغل الناس واثار الصداقات
والعداوات ، وخاض المعارك في شجاعة وحلاوة ، وإن يكن صف خصامه قد أرت له
من العداوات ما اضعف من قوة تأثيره في عصره ، وضيق رقعة ذلك التأثير وخاصة في
خصوماته التي لا تقم حول قضايا أدبية او ثقافية بل حول آراء أو مذاهب سياسية (١) .
أجل .. يمكن القول ان العقاد ظل ظاهرة فكرية وثقافية طيلة حياته التي
بلغت خمسة وسبعين عاما الا قليلا (٢٨ يونيو ١٨٨٩ - ١١ مارس ١٩٦٤)
تطلب فيها طعمه في مجالات متعددة تشي بموسميته فهو من ناحية كاتب اسلامي
له اكثر من سبعة وثلاثين كتابا حول قضايا الفكر الاسلامي في مقدمتها المعقريات ،
وبعض الشخصيات الاسلامية ، وما يتصل بالحضارة الاسلامية ، وما يناقض قضايا
اسلامية مباشرة ، او من خلال تناول قضايا فكرية او مذهبية او سياسية (٢) ،
وهذا التنوع - خارج نطاق الادب - يقدم لنا مفتاح دراسة النظرة التكاملية
والخبيج التكاملية عند العقاد بحثا عن نظرية المعرفة Epistemology ، وهو
منهج يستمد وجوده من نظرة العقاد الموسومة التي ادت بنظريته المعاصرة
في التفكير الى ستين :

-
- (١) النقد والفتاد المعاصرين ، نهضة صرد . ت ، ص ٨٠ ، ٨١ .
 - (٢) عرضا لذلك في مقالنا خبيج التفكير الاسلامي عند العقاد - بمكاننا
(قرايات ومحاوالت) - المجلس الاطلي للفنون والاداب ، ١٩٦٦ ، ص ١٣١ وما بعدها .
(سنكتسلي بذكر المراجع والمصادر في هوامش الصفحات) .

التحقيق المفرط - أو العناء المفرط ، وفي كلتا الحالتين حدة وظلة نفس

تتحرف الى نقد غير موضوعي .

إلمامية الثانية فهي تنوع المنهج تنوعا لا يعني خلطا أو اضطرابا في المنهج أو انتقالا بمقدار ما يعنى الزاوية والخاصية بين ثقافته الموسوعية المتشعبة على نحو ما سترى عند الوقوف عند منهجه الأدبي ، وتنوع آراء الدارسين فيه ومنه ، ذلك ان المعيار الم يتوقف على حيويته ونشاط فكره واستداد همرة - عند محسبنا - من أن أجروا بذلك أنه لا يوافق على جداء القراءة - لكي يكتب ، أن يرى هذا النوع من مجمل رسائله فقط أو كاتبا بالجمعية ، ولهذا فقد عزا كثير الحشرات إلى ذلك أنه يرى أن الأحياء الدنيا هي صورة العالم الخلق التي تتراءى فيها نبات الخالق كما تتراءى في الشجرة الشفحة ، فكما تنفس في أن يقرأ ليزداد عبرا كما قال الشاعر :

ومن رضى التاريخ في صدره أغياق أمصارا الى عسره

يقول : " وأما أهوى القراءة لأن عندى الحماة ولقد قرأت هذه الدنيا بغير حياة واحدة لا تكفى ، ولا تحرك لكل ظافي ضحرة من بؤات الجركر ، والبقراءة دون غيرها هي التي تعطيني أكثر من حياة واحدة فنحن عزاء الانسان اليوانخيا ولانها تزيد هذه الحياة من ناحية العنى " (١) وكان كالت لا حظ لها بقاد ير الحيلاب (٢) .

هذا النص - في تصويره - مفتاح فهم ثقافة العناء الموسوعية ذات الجدوى المترابطة ، حيث يضع أيدينا على ارتداد الموضوعات المختطفة ظاهرا الى اصله ، خاسلا من صلة فرائز الحشرات بطيخة الإديان ، وطخفة الإديان بقصيدة فسرل أو هجاء ، وجملة القصيدة بتاريخ الحقيقة الوشيرة ، وجملة ترجمة فرد بتاريخ أسية

يقول :

" وحقيقة الامر انها كلها مادة حياة ، وكلها جداول تنبت من ينبوع واحد وتمسود اليه " ، فتوكلها الهواج يتلاقى من غير واحد وتخرج منها مسننات الجدل الى التحليل الكبير (١٠)
 ويستلزم :
 ومن تأمل الكتب : العلمية والادبية والطبقية فوجد بين ضبط وقلة في الاطراف ، وتوسع دائرة المعطف والشعر والجمال في الثانية ، وتشبه البهيرة بملك الاستقصاء والانتقال من المعلوم الى المجهول ومن الفروع الى الامكنون في الثالثة (١٥) .

وقد تم من المصنفات الادبية والثقافة حوت طلب الكرامة (٦) مدافعا
 لها عن غلبتها الكبرى المتصلة به لدى بعض الناس ، حتى ليخبر من يساعد به مفرقا
 بين العقاد : كما يخلق الله : وكما يراه الناس ، وكل يراه هو (٧) .

هذا هو اساس من اساس موسوعة العقاد التي لم تتوقف عند انعطافية
 رتبة الاستلاكية فيما سبق ، او سئل تفضل مع الادب في اخص خصائصه ، سواء اكان
 ذلك في بؤايقه عند نظم اطي صائده وهو ابن سبع سنوات وتعلمها (٨) .

- (١٠) هو جسد قديم المعلوم في يومنا هذا
 (١٥) هو الحساب له مزايا عظيمة
 (٦) هو يزيد العمر في العمران
 (٧) هو ما يراه الناس
 (٨) هو ما يراه هو

وفيها يفيض مع النحو والجغرافيا ، واللغات ... الخ .

حتى استقام له الشعر ، وصار من اعلامه ، باكتساب صدر دواوينه (١) ، أم كان في اسهاماته الادبية المتعددة ، وبخاصة كتبه المنيعة على المقال ، اى التى نشرت ضخمة على هيئة مقالات متتابعة في الصحف ، كان نى طلبتهم اولا كتاب له وهو (خلاصة اليومية) الذى صدر سنة ١٩١٢ وفى ١١٢ ص (١٠) ويفيض في اثره بمشاركته في (الديوان في النقد والادب) هو والسازنى سنة ١٩٢١ ثم يفيض في كتبه .

الفصل سنة ١٩٢٢ وفى ٢٩٦ ص) ، ومطالعات في الكتب والحياة سنة ١٩٢٤ (فى ٢٢٠ ص) ، ومراجعات في الادب والفنون سنة ١٩٢٦ (فى ٢٧٦ ص) وساعات بين الكتب سنة ١٩٢٩ (فى ٢٦٩ ص) ... الخ .

(٩) اخرج العقاد اولى دواوينه بمقطة الصباح ، ثم جمع اربعة دواوين طبعها نى ديوان العقاد سنة ١٩٢٨ فى ٣٦٠ ص متفصلا بمقطة الصباح ، وهو سيج الظهيرة ، واشباح الاصيل ، واشجان الليل ، ثم صدر ديوان (عابر سبط) سنة ١٩٢٧ ، ثم صدر ديوان وحى الاربعين سنة ١٩٢٣ فى ٧٥ ص ، ثم هدية الكروان سنة ١٩٢٣ فى ١٥٨ ص ، ثم اعاصير مغرب سنة ١٩٤٢ فى ١٨٠ ص ، ثم بعد الاعاصير سنة ١٩٥٠ ، ثم اعيد طبع ديوان العقاد سنة ١٩٦٧ ، ثم اعيد طبع الدواوين الخمسة بعنوان (خمسة دواوين للعقاد سنة ١٩٧٣ ، ثم جميع عاصر العقاد ديوان (ما بعد البعد) سنة ١٩٦٥ ، وقد اختار العقاد مجموعة من شعره في (ديوان من دواوين) سنة ١٩٥٨ ، ويلاحظ في أسماء دواوينه سنة الاضافة ، اضافة النكسرة الى المعرفة .

(١٠) يذكر حمدى المكوت انه صدر سنة ١٩١١ استاذ الخبر من صدره بالمقطف فى عدد أغسطس ١٩١١ ، اعلام الادب المعاصر فى مصر - العقاد ص ١ ، القاهرة ، ١٩٨٣ هـ ، ص ١٧٥ .

وفي ذلك نجد تنوع اهتمامات مقالاته ، ونجد استجابة اهتمامه الادبي لقضايا الساعة حول التجديد ومعاركه ، حتى لتتحول بعض مقالاته الى كتاب مستقل موسع ، مثلاً رأينا في مقاله (رجعة ابي العلاء) في كتابه (ساعات بين الكتب) وكتابته التي بهذا الاسم (سنة ١٩٣٩ ، مطبعة حجازي .

على ان هذه الكتب - كتب المقالات - تتجلى فيها صورة التنوع التي تولدت عن موسوعيته ونظّل إطلاله على محتويات كتابه : ساعات بين الكتب بجزأيه (١١) ، وعلى الاثير فنرى جمعه بين موضوعات متعددة تتلاءم مع طبيعة مقاله الصحفي المتجه الى طبقات متعددة من الجماهير ، فنجد ما يلائم ذلك من (ساعات بين الكتب) و يضم بنسبة اكبر الدراسات الادبية والنقدية يليها الدراسات الاجتماعية ، ثم السير ، ثم الدراسات الدينية ، فالنفسية ، والتاريخية ، والفكرية . فتناول الفنون الأخرى كالموسيقى ثم الدراسات اللغوية .

وفي كتابه (على الاثير) نجد التوزع يختلف عما سبق ، اذ نجد طغيان موضوعات الدراسات الاجتماعية ، فالادبية ، والسير ، ثم التاريخية .

وهكذا نقف من هذين النموذجين على صورة من صور التنوع والتعدد في اهتمامات العقاد الثلاثية مع موسوعيته من ناحية ، ومع طبيعة نشاطه الصحفي من ناحية اخرى حيث مخاطبة الاهتمامات المتنوعة لدى الجماهير .

(١١) النهضة المصرية ، ١٩٥ ، ط ٣ ج ١ ، ٥٤٢ ص ، ج ٢ ٣٨٧ ص ، وعلى الاثير ، دار الفكر العربي ، القاهرة .

ثم هو يكتب عن اعلام الشعر بادشاهاين الروسى فى كتابه التيسيم
(ابن الروسى حياته من شعره) (١٢) الذى اتضح منهجه الفنى فيه
ثم مضى مع مجموعة أخرى من الشعراء فى كتبه :

عربى ابن ربيعة ، وجميل ، وشعراء مصر وحياتهم فى الجيـمـل
الماضى ، ورواية قصير ، وتذكارات جينى ، وثراس وشباطين (١٣) .

ثم كانت سياحته الادبية التى لا تقتصر على البيئة المحلية للادب حيث
نظريته العامة للادب العالمية من مثل كتبه : دراسات فى المذاهب الادبية
والاجتماعية - بحوث فى اللغة والادب ، وعظماء الفكرين فى القرن العشرين ،
همن الكتب والناس ، واللوان من القصة القصيرة فى الادب الأمريكى ، وشاعر
اندلسى وجائزة عالمية .

أو نظريته العامة للغة العربية فى كتابه (اللغة الشاعرة مزاجها الفـنـن
والتعبير فى اللغة العربية) (١٤) وفيه يتعدى العقاد مهمة فنية لدراسة
سر العربية فى الحروف والفردات والأهراء والمريض والفصاحة والمعجم والشعر
يقول : " مكان الشعر العربى فى الابدولوجية " بأنه أكثر من ادب
Litereture وأنه تعبیر عضوى Organic من الحياة
الباطنة ، فهو تنفيس حر من الوجدان فى فضاءه الخاصة والعامة
ص ١٢٢ .

-
- (١٢) مطبعة حجازى ، ١٩٣١ .
(١٣) جمعت هذه الكتب فى مجموعة اعلام الشعر ، دار الكتاب العربى ، بيروت
م ١ ١٩٧٠ فى ٧٥١ ص ، وصدرت طبعاتها الاولى بالقاهرة بمسـن
سنة ١٩٣٢ ، ١٩٤٥ .
(١٤) القاهرة ، الانجلو ١٩٦٠ ، ١٥١ ص ، وط - مكتبة غريب ، قسـى
١٨٤ ص .

ولأن العقاد ظاهرة فكرية وثقافية فقد تعددت معاركه حتى لممكن القول انه لم تقم معركة ادبية او فكرية خلال عصره المديد الا وكان يشارك فيها ، وفي معاركه كان حريصا على سمة " الفردية " بخص معركته واحدة دون الانتساب الى جماعة ، فهو يخاصم شوقي شاعر القصر بحالة من نفوذ ، من ذلك مهاجمته مهرجان تكريم شوقي بمناسبة مايعته امرا على الشعراء في ابريل ١٩٢٧ ، وكان المهرجان برئاسة سعد زغلول زعيم الاقلية التي ينتسب اليها العقاد ، ولم يمتعه ذلك من مهاجمة المهرجان ونشر حملة في افتتاحية الجريدة الوفدية التي يكتب فيها .

ويمكن ان يقال ذلك بالنسبة لمعاركه (١٥) مع الرافعي حول مفهوم الشعر سنة ١٩١٤ ، ومع طه حسين حول النقد اللاتيني والنقد المكموني ، وزكي مبارك سنة ١٩٤٢ وهيكمل ، ولطفى السيد ، وتوفيق دياب ، وبكر عبيد ، والهلماوى ، ومظهر ، وقلاوب ، وابى شادى ، والحكيم ، وسندور ، والخلوى ، ومنت الشاطى سنة ١٩٦٤ ، والزهاوى ، وسلامة موسى ، والعالم ، وعبد العظيم انيس ، وسعد كامل حسين سنة ١٩٦٢ ، واحمد ضيف .

وهي معارك متعددة متنوعة انعكس عليها طابعه الموسوى في تنوع موضوعاتها ودوافعها ، والطابع الفردى في طريقة شاركتها فيها ، وليس امر العدادات* هوكل ما خلفه العقاد من هذه المعارك ، وما اضعف تأثيره في عصره ، كما يذكر سندور ، بل ان تنوع هذه المعارك ، واصرار العقاد على خوضها بحماسة الجندى المقاتل المصرطى النصر استفد جهد العقاد النقدي ، وحقا من اكمال

(١٥) المعارك الادبية في الشعر والنثر والثقافة والقومية العربية ، انور الجندي القاهرة ، ١٩٦٦ ، ومعارك العقاد ، عامر العقاد ، بيروت ١٩٧١ .

نظريته النقدية ، الامر الذى يجعلنا نتفق مع ابراهيم عبد الرحمن فى تقريره ان نظريته النقدية متكاملة (١٦) ومع مندور فيما نقناه عنه فى صدر حديثنا .

وفى جلة اهتمامات محمد مندور النقدية قدم لنا كتابه (النقد والنقاد المعاصرين) (١٧) ، وقد افرد للعقاد بضع صفحات (١٨) حاول فيها اللام بأطراف نظريته العامة فى الحياة والادب والنقد مدركا انها " نظرية واسعة تشعبية " ، ويقرر ان " العقاد من النفر القليل فى بلادنا الذين نستطيع ان نستخلص لهم من مجموع إنتاجهم الثقافى ظهيرة عامة فى الحياة والادب ، وهى فلسفة يمكن ان نجعلها فى لفظتين : " الفردية ، والحرية " (١٩) .

وإذا كان مندور قد ارجع الى " الفردية " عند العقاد مواقفه عند الحكم المطلق والمذاهب الادبية ، فانه يرجع اليها - كذلك اهتمامه بالشاعر الذى يدرسه ، واهتمامه بدموته التجريدية فى الشعر هو وشكرى والمازنى حيث الاهتمام بالوجدان الفردى ، وللعقاد اهتمام بحرية التفكير والتعبير عن الشخصية الانسانية (٢٠) .

والحق ان " الفردية " عند العقاد - فيما نتصور - مرجع من مراجع انحراف مذهب النقدى عن جادة الحياة ، وسبب من اسباب نقده الانفعال الذى قد يعنف ويسرف تجاوزا الحدود ، فصح او غير فصيح عن دوافع وروائع شخصية ذاتية ، حتى لم يكن القول ان هناك تارقا واضحا ، بل مضمنا معاصره (وخاصة) احمد شوقى ، وخصوم معاركه ، من ناحية ، ونقده غير المعاصرين له (كابن الرومى ، وابى نواس ... الخ) ، ففى نقده المعاصرين

-
- (١٦) فصل مج ٣ ع ٤ ١٩٨٣ ص ١٣٥ وما بعدها .
 (١٧) تهذيب مصر ، القاهرة . دار ستارلا - حسين الرضى ، وميخائيل نعيمة ، وهند الرحمن شكرى ، وهاس محمود العقاد (٧٦ - ١٥٨) ، والمازنى ، ولويس عوض ، وكثيرى شقى ، ثم النقد الأليكترونى .
 (١٨) تحدث عنه ايضا فى كتابه : الشعر النصى بعد شوقى ص ٣٤ ، وقضايا جديدة ص ٨٨ ، وصرحيات شوقى ص ٥٨ ، وفى الميزان الجديد ص ١٢٤ .
 (١٩) ص ٨٩ .
 (٢٠) انظر مقاله بالبهلال ج ١ ص ٤٥ س ٢٤ .

تتجلى روح الخصيه والعداء ، وتتلو صيحات الانفعال والموجدة ، وليس اهل على ذلك من نقده شوقيا في (الديوان) ، كما يشهد بذلك صدور وغيره من قراء هذا النقد الذي غالى فيه غلوا شديدا ، فقد ولدت هذه الفردية فية نزعة من الاعتزاز بالنفس والزهد بالفكر حتى لم يكن يغيره هبوط المنزل عنه وقصور التفكير بالنسبة اليه ، مما جعله يخلط كثيرا بين موضوعية النقد وضعفها الشعوري ، مما جعله قادرا على ادارة نوع من الجدل الراسي الى طمس معالم الجودة في العمل الشقوي امانا منه بأن النقد تقوم او حكم او معيار مما اعتقد نقده معاصريه روح التفسير والشرح كالا فامة النقدية في غيرة تحمسه عند العمل الشقوي وبكثته على تنويره راسي مدح الجبان الغني فيه ، وان تحلق التفسير والتعليل في دراساته الادبية ص (١٤٥) .

وقد وفق صدور توفيقا واضحا في بيان هذا الخلوق في نقد العقاد شوقيا ان ارجع المعركة الى ما قبل سنة ١٩٢١ وقت صدور الديوان (٢١) حيث كلف على قصيدة شوق في بطرس غالي في (خلاصة البوصية) سنة ١٩١٢ ، وهذا الاسراف والخلو جعله بمن هجوا ضيفا على شوق فيهاجم شعره كله ، ثم ينقد غياب الوحدة العضوية فيه ، ثم ينتقل لبقاير فرقة أخرى شمل : " الاحالة " ، و " التقليد " ، ما عرف لدى القداما ، وينقد مسرحية (قميز) وليس له في النقد المسرحي سوى هذه المحاولة التي اعتبرها صدور - بحق - " جزءا من حيلته لجماعة المعنفة على شوق " باسم التاريخ تشاره واستخدام الاسماء التاريخية تارة ، والفاخرة للشعوية تارة ، مما يجعلنا نتفق مع صدور في قوله ان " هذا النقد قد جاء ابعدا ما يكون عن اصول هذا الفن ، التي يلوح ان الاستاذ العقاد لم يعن بدراستها دراسة متفيزة " لانه لو كان معناها بفن الادب التشعلي لوقع على عيوب فنيه بالمسرحية ، ولهذا رأى صدور - بحق - ان هذا من " نقد العقاد الهدام " .

(٢١) أصدره هو والمنازي وكان في نيتها إصدار عشرة أجزاء لم يصد منها الا جزآن طبعتا طبعتين متتاليتين بعد نفاذ الطبعة الأولى :

لقد كان ظهور (الديوان) طغرة عاطفية من العقاد والنازنى ،
او خطوة مرتجلة ، والدليل على ذلك انه حين ظهر جزأ (الديوان) في يناير
ثم فبراير من عام ١٩٢١ ، وأعيدت طباعة كل منها بعد شهرين من صدورهما
كان الوجد في المقدمة بالضم نحو اكمال الاجزاء العشرة لاتمام عمل ^{مبدوء}
كما تقول المقدمة ، ولأن الفكرة ذات دافع شخصي لم يصدق الوجد المصادر
في المقدمة ، ذلك أن العدا من كل منها كان موجها إلى شخصين ، فالعقاد
يرى سببا لشوقي ثم للرافعى ، والنازنى يمدد راحه لشكرى ثم للمنظومى .

ولو تصفحنا الجزء الأول (٢٢) لوجدنا الهجوم على شوقي يستغرق
بعد المقدمة - الصفحات (٥ - ٥٦) أى (٥ صفحة) بينما يستغرق
الهجوم على شكرى الصفحات (٥٧ - ٧٣) أى ١٦ صفحة .

ولو تصفحنا الجزء الثانى لوجدنا الهجوم على المنظومى فى الصفحات
(٧٧ - ١١٢) أى ٣٧ صفحة ، والهجوم على شوقي (١١٥ - ١٦١)
أى ٥٤ صفحة وهو قدر يقارب قدر الصفحات المضممة لشوقي فى الجزء
الأول ، ثم يخصص للرافعى من ص ١٧٠ إلى ١٧٦ ، ثم ينفرد شكرى بالجزء
المتبقى من (١٧٧ - ١٩٠) ، أى ١٣ صفحة ، وهكذا نجد نصيب
النفوذ من الصفحات يتراوح بين ١٠٥ ص من شوقي ، و ٣٧ ص من
المنظومى ، ٢٩ ص من شكرى ، و ٧ ص من الرافعى .

اما حدة (الديوان) - وهى حدة قصيرة فى صفتين -

فتبين ان وجهته " الالبانة عن المذهب الجديد في الشعر والنقد والكتابة " ،
 " وانه اقامة حد بين عهد ين لم يبق ما يسوغ اتصالها والاختلاط بينهما " ،
 وانها فيه قد اختارا تقديم " تعظيم الاصنام الباقية على تفضيل الحادى
 الحديثة ، ووقفنا الاجزاء الاولى على هذا الغرض - يقصد ان تعظيم
 الاصنام حسب تعبيرها - وسنرد فيها نماذج للادب الراجح من كسبل
 لغة وقواعد تكوى كالسبحار وكالسيزان لاقدارها " .

اي ان غطتها تعظيم الاصنام اولا ، ثم النقد التطبيقى من كل لغة
 وقد حققا الهدف الاوى بمهاجمة من يرين مهاجمة ، ثم نسيا هدفهما
 الثانى ، وهو الاهم ، بما يؤكد واقعا الذاتية ، وافكارها الارتجالية
 التى لم ينج منها استاذها ورفيق طريقها " شكرى " الذى وقع نتيجة خلاف
 شخصى بينه وبهلهما لا بسبب خلاف فكرى او ضيق .

وهذا كله يدفع الباحث المعاهد الى التساؤل . ماذا قدم (الديوان)
 وما مدى ما حققه ؟

ان حدة انفعال (الديوان) خفت بسبب انشغال العقاد بمعاركهم
 الادبية المتعددة ، ومعاركه السياسية والحزبية ، وصحب انغراط عقده
 الجماعة ، وغفلة حدة الخلاف بين العقاد وشوقى ، وانشغال العقاد
 بمحوشه ودراساته الموسوية ، وانصراف الازنى عن الشعر واتجاهه
 للصخرية ، وعكوف شكرى على الشعر وقيل من النقد واستعرا بالعقاد
 فى انتاجه المتنوع .

ولم يكن هو العقاد ماثلا فى الديوان فحسب ، بل تلحق به ايضا نسي
 (شعراء مصر ومئاتهم فى الجيل الماضى) (٢٢) حين تناول طائفة من الشعراء

(٢٢) مجموعة اعلام الشعر العربى ، بيروت ط ١ .

هم : حافظ ، وحنفى ، وضوى ، وعبد المطلب ، والبكرى ، وفكـــر ،
ونديم ، واللبشى ، والبارودى ، وعائشة التيمورية ، وشوتى .

غير انه هنا يسلط مزيدا من العناية على
على قسط كبير من الكتاب
ولا شعر النفس الخاصة :
للبحر في الربيع وهو :-

اتاك الريمم الطلق مختال ضاحكا

من الحسن حتى كاد ان يتكلموا

* لبحاوی کل ما نظم شوقی فی رہیماتہ وریحانیاتہ وناظر النیل او مناظر السمر
البحیرہ - (۲۴) .

ويذهب الى ان " الجهل الذي نشأ بعد شوقي لم يتأثر به اقل تأثير
لا من حيث اللغة ولا من حيث الروح ، بل ربما كان الاصح ان شوقيا
تأثر من نشأوا بعده " (٢٥) . ويقصد بذلك تأثير جماعته حيث اخذ
بشرح نهجها (٢٦) .

ربما كان من الحق القول إن كتابات العقاد في مقدمات الدواوين -
ودواوينه ودواوين غيره - ذات قيمة في الجانب التطويري في نقده (٢٧) ،
اكرما نجده في الديوان ، و (قمه في الميزان) ، فهو يحدد دوائنه
هدية الكروان ، ودوائنه أفاصر مغرب ، وما بعد الافاصير ، وروح الاربعين

(۲۴) نفسه ص ۳۶۴.

(۲۵) نغمہ ص ۲۸۶ •

(۲۶) نفسه ص ۳۸۶ .

(٢٧) من الطرفان للعتاد احاديث عن النقاد والنقد ، انظر حديثه
مع عبد الحميد باب (افصول) في النقد الادبي الحديث ، الهيئة

وعاير سجل ومقدمات (٢٨) تتعدد موضوعاتها بين : موضوع الكروان بدلا من
البلبل ، وعن ذمة النقد ، والشعر المعصرى ، والموضوعات الشعرية

ولم يقتصر ذلك على دواوينه بل نراه فى مقدمة دواوين غيره ، كذلك
المقدمة بعنوان : (الشعر ومزاياه) فى مقدمة ديوان (لالى واكسار)
لشكرى الصادر سنة ١٩١٣ ، يقول العقاد :-

" ليس الشعر لغوا تهذى به القرائح فطقاء العقل فى ساع كلالها
وفتورها لمو كان كذلك لما كان له هذا الشأن فى حياة الناس .

لا . بل الشعر حقيقة الحقائق ، ولسب الالباب ، والجوهر الصميم من
كل ماله ظاهر فى مقابل الحواس والعقل ، وهو ترجمان النفس والناقل الاميسى
من لسانها ، فان كانت النفس تكذب فيما تحسن به او تنجى منها وبين
ضميرها فان الشعر كاذب وكل شئ* فى هذا الوجود كاذب والدنيا كلها
رما* ولا موضع للحقيقة فى شئ* من الاشياء* ، ثم يقول :-

" ليس لشعر التظيد فائدة قط وقل أن يتجاوز أثره القرطاس الذى يكتب
فيه او الشعر الذى يلحن عليه وشتان بين كلام هو قطعة من نفس وكلام هو رقعة
من طرس " .

وقد ترى فى هذا النص واسأله سموا من الجانب الهدام ضده ، ونستطيع
ان نصف جانباً من جوانب هذا النقد الهدام بتخل فى مشاركة العقاد والمازنى
فى توسيع نطاق حطتها القاسية على طم الشعر شوقى ، وطم النشر المنفلوطى
آنذاك ، وطم الرافعى ثم طم شكرى ، واتهامهم الاخير بأنه " صنم الالهيب

(٢٨) انظر خمسة دواوين للعقاد ، الهيئة المصرية ١٩٢٣ ،

ص ١٠ - ٢ ، ص ٩ - ١٢ ، ٢٧٧ - ٢٨٠ ، وانظر كتابه

ديوان الشعر فى الأدب العربى الحديث ، دار النهضة العربية

ص ٢ - ٢٠ .

والجنون ، ومعلوم منزلة شكري في هذه الجماعة ودوره فيها ، وهو دور يقطع
بخطأ تسميه هذه الجماعة باسم (الديوانيين) (٢٩) لأنه يورث كونه
غير محسوب في الكتاب ، كان أحد أهداف الرأفة فيه ، وصريح رماحهم
الهوجاء ، وما كان ذلك راجعاً لاختلاف في المنهج النقدي ، وهو
استادهم فيه ، بل كان راجعاً الى خلاف شخصي (٣٠) بين شكري
والمازني ، اذا اخذ الاول على الثاني سرقاته من الشعر الغربي . بل
ان المازني يذكر ما لشكري من منزلة وما عليه من فضل ادبي (٣١) ، بل
يعتذرهما بدرسته (٣٢) ، وكتب العقاد شيداً به (٣٣) :

ولهذا يمكن القول ان ما نادى به العقاد هو جو ما نادى به زميره
وسا هو ذصلة وثقى بقراءتهم الانجليزية ، هما وافقنا منذ رأى قوله (٣٤) .

• وان يكن من العدل ان نقرر للاستاذ العقاد بنوع خليفته
الفائقة على مثل جميع ما يقرأ وهضمه ، حتى يستحيل الى جزء من ذاته
ومن العناصر المكونة لشخصيته الثقافية والادبية ، حتى ليصعب ان يرجع
هذا الرأي او ذلك من آرائه الى هذا الاديب او المفكر الغربي اوداك ،
فالعقاد من القوة بحيث يطبع جميع آرائه مطابعه الخاص وكأنها ضمنية
عن ذاته ثقافياً حتى لنحس بأن الرجل لم يجانب الصواب عند ما قال
عن نفسه في مقدمة مجموعته (مراجعات في الاداب والفنون) : " لو ان
للخواطر يوم يمت تردد فيه الى ناشئها لخلت انها ستبعت مصي في جسد

(٢٩) شاعت لدى كثير من الدارسين .

(٣٠) لمراجعة التفصيل يرجع الى مقدمة الجزء الخامس من ديوان شكري ،

ص ٣٧٣ .

(٣١) السياسة في ٥ ابريل ١٩٣٠ ، و ١٢ ابريل ١٩٣٠ .

(٣٢) البلاغ سبتمبر ١٩٣٤ .

(٣٣) الهلال فبراير ١٩٥٩ .

(٣٤) ص ٩٥ .

واحد يوم يفتح في الصور الموعود ، او لمعات معنى حيث كما في الحياة ولو كان لها الف شبه يرضها بأرا* الموتى وكلمات الكاتبين ، فاننا انما قد عشتها وغدوتها فلا اتخليني قائما بغيرها كما لا يستطيع احد ان يتخيل جمده قائما بغير أعضائه او يتخيل رأسه ويديه وقد مبه وسائر جوارحه راجعة يوم القيامة الى جثمان غير جثمانه . . . الخ»

(٣٥) من هنا كان تناول محمود الربعوى في كتابه الحافل (فنقد الشعر) لهذا التأثير الانجليزي ، والرومانتيكي بنوع خاص في الرفقاء الثلاثة ، وبخاصة العقاد (٣٦) وحكم حصيلتهم من الثقافة الانجليزية ، وهو تأثير لم يبلغ شخصياتهم ، ولم يطمس جوانب الابداع والاضافة لديهم .

ويضع الربعوى يده على مجموعة من المبادئ النقدية ذات جذور رومانتيكية في نقد العقاد ، فيتقدم خطوه عما صنعه شندور في وقت سابق ، من هذا المبادئ : " الصدق الشعري ، وقياس الاصاله الشعرية بمقدار تعبيرها الصادق من الحالة الشعورية التي كان العمل الشعري نتيجة لها " (٣٧) ، وهو مقياس يميز الرومانتيكية من الكلاسيكية في محاكاة الطبيعة ، وقد رتب العقاد على ذلك الصدق الشعري ان يكون شعر الشاعر دليلا على شخصيته وكاشفا عنها وطبق ذلك في كتابه (ابن الرومي - حياته من شعره) ، وقد كان يؤمن بأن الشعر تعبير عن المواطن - كما تحدث زملاءه : شكوى والمازنى - وحديته من النظرية التعبيرية بدنيه من حديث ورد زورت عنها (٣٨) ، كما انها اصل نقده العنيف لشوقي ، وان كما نختلف مع محمود الربعوى في ذلك ونرجع حلة العقاد على شوقي الى انفعال شخصي ، وموقف غير موضوعي ، والا فهل من منكر لوجود شخصية شوقي في شعره ؟ ، وهل من جاحد لصدق انفعال

(٣٥) دار المعارف ط ٤ ١٩٧٧ - الفصل الخامس - اثر النظرية الرومانتيكية

في جماعة الديوان ص ١٠٠ - ١٤١ .

(٣٦) رأى - بحق ان العقاد الناقد الاول لهذه الجماعة والمتحدث بنظريتها ص ١٢٤ .

(٣٧) ص ١٢٤

(٣٨) انظر العقاد مصر وميثاقهم في الجيل الماضي ، ص ١٦٣ .

شوقي نفس كثير من شعره في حين ، شوقي في قصائد الدينية ؟
وأين شوقي في قصائد الغزلية وقصائده في صفاء ؟

رائنا نتفق مع الهمي في أن نص العقاد الموجه إلى شوقي نفس
الديوان ، ومطلعه :- " اعظم - أيها الشاعر العظيم - أن الطاهر من شعر
بجوهر الأشياء لا من بعدد ها . . . الخ " - أنه من أهم الوثائق النقدية
عند العقاد (٢٩) ، ولكنا نتساءل عن مدى تحققه في شعر العقاد وفيما اشترت
اليه من شعر شوقي .

ومن النقاط التي تعكس تأثير العقاد بالنظرية الرومانتيكية في الشعر
أن الشعر معناه فنية معقدة ، والعلاقة بين الفكر والشعر والخيال (ولنا معه
وقته) ، وارتباط الشعر بالحقيقة ، وأن الطبيعة كائن حي حتى يتحدث الشاعر
والطبيعة كما يخفى الصوفي ، وغير ذلك من مبادئ قد لا تتصل اتصالا كبيرا
بالرومانتيكية ، ولعل هذا التناول الفني الواسع للصلات الفنية بين طبيعة النقد
الحدوث والرومانتيكية خير حسي " لطريق فهم دورهم النقدي الكبير ، وفي هذا
المجال أيضا ما كتبه إبراهيم عبد الرحمن في مجلة فصل (٤٠) واقفا على أصول
تراث جماعة الديوان النقدي ومصادره في قراءة مقارنة حددت وضع هذه الجماعة
واسهامها ، وطرق تأثيرها لحركة الرومانتيكية ، وأشارت إلى الروح " العذوانية "
في نقدهم ، وهي روح مخلفة بطابع انطباعي إلى جانب نقدهم العلمي
الأخر .

(٤١)

أما محمد خليفة التونسي فيجميع في كتابه (فصل من النقد عند العقاد)
طائفة من كتابات العقاد النقدية في أربعة أقسام ، أحدها عن اسهام العقاد
في الديوان (١٩٢١) ، وثانيها : نقده مسرحية قديم لا أحد شوقي ،

(٢٩) ص ١٣٠

(٤٠) مج ٣ ع ٤ ، ١٩٨٣ ، ص ١٣٥ - ١٥٨

(٤١) ص ٦ ، ٦٢ ، ٩٢

وثالثها : مقدمات دواوين العقاد وخواتمها . وضائد للعقاد ، ورايةها
مختارات من مقالات العقاد وكتبه .

وقد نهجت هذه الفصول من حب المؤلف لأستاذه ، وتحسسه له ما جعلنا
نصف على اسرافه في هذا الحب والتحمس فيما كتبه عن العقاد وبكائه الأدبية
والنقدية ، ونعتقد انه محاولة من المؤلف لمناقشة آراء العقاد اونقادها ، بالرفق
من موازنته بين العقاد وبعض اعلام جيله كطه حسين ، ومحمد خلف الله ، أحمد
ومصطفى صادق الرافعي ، ويرغم تناوله منهج العقاد (٤٢) النفسى المطبق ،
في كتابه (ابن الرومي - حياته من شعره) ، و (أبونواس - الحسن بن هاني *
دراسة في التحليل النفسى والنقد التاريخى (٤٣) ، ومقالاته عن المتنبي ،
وأبي العلاء المعرى .

وتعضى الدراسات هنا حول العقاد ناقدا ، من ذلك كتاب عبد الحى دياب
بهذا الاسم ، وأشارت هنا وهناك في كثير من المصادر .

ومن الحق أن نذكر محاولات عبد الحى دياب في دراسات عن العقاد
واشهرها كتابه (العقاد ناقداً) (٤٥) ، وهو كتاب مطول يحاول فيه صاحب
الاحاطة بفكر العقاد ، ومعظم خواطره وآرائه متناولا دور العقاد مع صاحب
فيما عرف بدراسة الديوان ، ثم اتجاهات التجديد ضد العقاد في الجمال ، والفنق
الغنى ، والخيال ، ورسالة الشعر ، ثم آثار آراء العقاد المتنتة في معاركه
ونظرياته .

(٤٢) ٥١ ، ٥٩ .

(٤٣) القاهرة ، ١٩٥٣ .

(٤٤) ملما نرى ضد عباس خضر في الواقعية في الأدب ، دار الجمهورية ، بغداد .

١٩٦٢ من ٨٦ - ٨٩ .

(٤٥) الدار القومية للطباعة ، القاهرة ١٩٦٦ في ٨٧٣ ص وللمؤلف اهتمامات

عديدة بأدب العقاد منها كتابه من شعره ، ومنها كتابه (مشاكسات
أدبية) - من معاركه ، ومنها كتابه (فصول في النقد الأدبي الحديث)
ومها أحاديث عن العقاد ومعه - الدار القومية ، مذاهب وشخصيات
- العدد ١١٣ ، ١٩٦٥ ، الى جانب كتب أخرى له ، ومن الحق
الإشارة المهمة لجهود عبد الفتاح الديدي في هذا المجال وهي عديدة .

وقد بدأ الكتاب في حجم ضخم نظرا لسمي الجمع والاحاطة فيه التاجعين من
 هوس المؤلف على تسجيل كل ما يتصل بموضوعه لدى أستاذ العقاد امتدادا لاهتماماته
 العديدة به .

أما محمد غنيم هلال فقد تناول جوانب من نقد العقاد ضمن قضايا كتابه
 (النقد الأدبي الحديث ، مصادر الأولى ، تطوره ، فلسفته الجمالية)
 مذهب (٤٦) ، وخاصة حديث العقاد عن الوحدة العصرية ، والصورة الفنية
 وغير ذلك من قضايا كان فيها العقاد مغلبا للجانب النظري على الجانب التطبيقي لكنه
 حركة النقد الأدبي على أي حال .

وأشار عبد القادر القط إلى عدم التوافق بين الجانب التنظيري والجانب التطبيقي
 لدى العقاد وزميله ، وهو جانب على قدر كبير من الأهمية يجعلنا نتفق معه في قوله
 في كتاب " (الاتجاه الوجداني في الشعر العربي المعاصر) (٤٧) :
 " ولحق أن من يدرس شعر هؤلاء الرواد دراسة فنية فاحصة بعيداً عن التأثر
 بأرائهم النظرية في الشعر يجد ثغرات كبيرة بين النظرية والتطبيق " .

وإن ارتبطت النظرية في مقدمات وأوصافهم بالتطبيق في تلك المقاصد ، كما
 يتفق معه في علم صدقانية (مدرسة الديوان) نسبة إلى ما جاء في هذا الكتاب
 الصغير يقول (٤٨)

-
- (٤٦) دار النهضة العربية ط ٣ ١٩٦٢ - ص ٣٩٥ ، ٣٩٦ ، ٤١٠ - ٤١١ ،
 ٤١٣ - ٤١٤ ، ٤٥٠ - ٤٥٣ ، ٤٥٤ ، ٤٥٦ ، ٤٧٢ .
 (٤٧) دار النهضة العربية ، بيروت ط ٢ ١٩٨١ ، ص ١٣٦ وما بعدها .
 (٤٨) نفسه ص ٢٠٤ .

" ولعل الكتاب لا يمثل أهم ما كتب الثلاثة من الشعر ونظراته وبياناته " .

كما أشار إلى عدم التطابق بين النظرية والتطبيق أحد هيكلي في كتابه (تطور الأدب والحديث في مصر من أوائل القرن التاسع عشر إلى قيام الحرب الكبرى الثانية) ،
قائلا :

" الحق أننا لا نرى التطابق الكامل بين مذهبهم النظرى وكل نماذجهم التطبيقية وخاصة بعد امتداد الزمن بهم ، ولقد هم بهذا ^{لدينا} عن التحمس لتجديداتهم " ، وأخذ في بيان مخاض العقاد للتطبيق ، من ناحية : شعراء الديان أو جماعة الديان أو مدرسة الديان (٥٠) ويرى ترك التسمية لمبين (٥١) : ظهور الديان بعد ظهور الاتجاه الشعرى بنحو عشر سنوات ، والسبب الثانى ما تضمنه الديان من هجوم غيف على شكرى .

ويرى الريمى في كتابه (فى نقد الشعر) أن التأثير النظرى على فكر هؤلاء لم يتركبه تأثير مائل على اتجاههم الشعرى .

ونرى أن غياب الموازنة بين التطوير والتطبيق لدى العقاد أو الفارقة الواضحة بين آراء العقاد والمائلة إلى نظريته النقدية فى الشعر العناني من ناحية ، كما يمكن أن يقف عليه قارئ شعره - نرى أن ذلك راجع إلى أنه كان يكتب أفكاره النظرية فلسفى خضم انفعاله برسالة اصطلح بها هو صاحبها ، ومثله موقف الجديد من القديم ، أو موقف الابتكار من التقليد مما نلن أنه كان يكتبه من منطلق أداء رسالته النظرية ، وهذا ينقلنا إلى الوقوف على رأى النقاد فى شعره . وهم من الكثرة بحيث يمكن الوقوف على نماذج من كتابات بعضهم فحسب .

يقف مندور فى (النقد والنقاد والمعاصرون) على تنوع شعر العقاد وأنه " انسر لنغمه الضرب على سائر النغمات " ، فله الشعر الباطنى ، وشعر المناسبات التقليدية ، بل نراه يحاول أن يكشف موضوحات جديدة للشعر على نحو ما فعل ديوانه (طهر سبيل) حتى ليوجه الدعاء إلى التغنى بالكروان لا البلبيل :

هل يسمعون سوى صدى الكسروان

صوتا يرفرف فى الهنوع الثانسى

ونقد مندور ديوان (أعاصير مغرب) ، وعجائيل يسمى هذا شعرا
لأنه نشر في مادته وأسلوبه وورثه ، كما أشار إلى الجفاف العقلي يسمى
(ترجمة شيطان) في حديثه عنه في (الشعر المصري بعد موتي) .

ومضى الصحرى في كتابه (الشعر المصري المعاصر) مع شعر العقاد
الذى هو نظم عقل لا شعر قلب مشير إلى قول مارون عبود أن شعره نظم عقل
لا قلب ، وهكذا يؤكد الصحرى غلبة الفكر على الشعور في شعر العقاد
إلا فيما ندر في ديوانه (أعاصير مغرب) ، ولا يرى في شعره أى جسم (٥٢)
غير أنه لا يحذف كلمة من الشاعرية ، يقول :

ومهما يقال في شعر العقاد وفي صياغته الجافة وموسيقاه غير الـ
وثة تلون شعره بحرارة العاطفية . . . فلن يفكر نصف أنه أحدث شيئا
من التجديد في الشعر العربي الحديث ، وإن له طائفة من القوائد الغنية
المتارة وخاصة في الطعفة العامة ، وعالم الفكر ، وفي الطبيعة ، فضلا عن
له من اللغات الواقعية العائرة كما في ديوانه (عابر سبل) ولن يجحد
أدب عربى أن للعقاد صياغة المستغلبة التى اهتمت من الصياغة التقليدية ،
وتجريدت من الأصباغ والمعنونات البديهة . والطحوظ أن شعر العقاد شعور
تفكيرى بالوف وتأملى ذاتى وفلسفى خفيف وظ أن تجد فيه شعورا أو انفعالا (٥٣)

ويسلط رمزى مفتاح الضوء في كتابه (رسائل النقد) (٥٤) على فضيل
شكرى وعلى زميلة وضهما العقاد من ذلك تأثر العقاد بشكرى في دوائره
زورة على غير موعد ، والقريب والبعيد ، ونحن وزماننا ، وكأس على زكوى .
وربما وجد بعض الدارسين في الكتاب تحاملا على العقاد وتحيزا لشكرى ، ذلك
أنه كان حادا فيما تناول به شخصية العقاد وطريقة تفكيره ، وشعره .

(٥٢) القاهرة ، ١٩٤٨ ، ص ١٠٢ .

(٥٣) نفسه ، ص ١٦٢ ، ١٦٨ .

(٥٤) ط ١ ١٩٣٤ ، مطبعة الاخاء ، ص ٦١ - ٦٨ ، ٨٩ - ١٤٩ .

وقد اختار الراقصى قطعة الحديد التى تشوى عليها اللحم وجعلها اسما لكتابه على السفود ، استمرارا لما بينه وبين العقاد من خصوصية تعود الى سنة ١٩١٢ حيث كانا يكتبان فى (البيان) ، ثم السبى سنة ١٩٢١ وقت ظهور الديوان فى الادب والنقد ، وتناشهما حول " من الاربية ذات الصالين الادبى الشهير .

ومضى مصطفى صادق الراقصى فى كتابه (على السفود) (٥٥) ، يتهم العقاد بالسرقه فى شعره حتى بلغ جلة ما احصاه نيفا وثلاثين بيتا .

وما بين الشطط فى الهجوم على العقاد ، والاعتدال فى تقويم تجربته الشعرية نجد الميل الى مدح العقاد والاشادة بتجربته الشعرية لدى محمد خليفة التؤسى فى (فصول من النقد عند العقاد) ، وعبد الحى دياب فى (شاعرية العقاد فى الميزان) (٥٦) واحمد ابراهيم الشريف فى (المدخل الى شعر العقاد) (٥٧) ومن قبلهما ما اشار به طه حسين من شاعرية العقاد حين يابسه بامارة الشعر (٥٨) ، وما نجده لدى بعض المشتركين فى كتاب (العقاد دراسة وتعبية) (٥٩) ، ولدى زهير العمري فى شعر العقاد (٦٠) . فهذه الدراسات على الرغم من طابعها الموضوعى ، وميلها الى الدراسة العلمية الثابتة ، كانت تنح الى انصافه شعر العقاد ، والدفاع عنه ، ومحاولة اثبات جودته ورفعته ، وهكذا نجد العقاد محيرا لباحثي شعره كما هو محير لباحثي اتجاهه النقدي ، وضحاى الضهجي ، والا فما تفسيرنا لقال طه حسين فى حفل تكريم العقاد سنة ١٩٣٤ منه قوله :-

(٥٥) مجموعة مقالات نشرها بمجلة العصور لصاحبها اسماعيل مظهر ،

صدر بالقاهرة ، سنة ١٩٣٠ .

(٥٦) دار النهضة العربية .

(٥٧) دار الجبل ، بيروت .

(٥٨) فى حفل اقيم بمصر الا زكية ص ٤ / ٢٧ .

(٥٩) لائحة من المؤلفين .

(٦٠) دار العلوم ، الرياض ، ١٩٨١ .

تسألونني لماذا أومن بالعقاد في الشعر الحديث ، وأومن به وحده ،
وجوابي يتبرجدا ، لماذا ؟ لاني اجد عند العقاد مالا اجد عند غيره
من الشعراء ... (٦١) .

وهو مقال طويل يزخر بحدح طه حسين لشعر العقاد مدحا ما اظن من
انه موضوعي ، وما اظن الا انه يعود الى ملاحظات شخصية دفعت طه حسين
الى ان يتأدى بوضع لواء الشعر في يد العقاد (٦٢) ، وقد تهافت الناس
انها تقاسما دنيا الأدب : هذا له الشعر وذلك له النشر .

والحق ان العقاد قد احسن انه ند لشوقي وغيره من الشعراء المعاصرين
وانه صدر له حينذاك - ستة دواوين وستة مجلدات من المقالات ، وانه وضع
نشيدا قوميا في فترة نقد التشيد الذي وصفه شوقي ، فاذا أضفنا الى ذلك
انه واحد من امير فرسان حركة تجديد الشعر وقد في طابع رومانتيكي اراه -
كلاسيكية شوقي الجديدة هو وجهه يمكن ان نفهم مغزى قول من يشيد بشاعرية
العقاد من مثل قول عبد الحميد بنيس (انما العقاد شاعر) (٦٣) ، واختيار
الرأى الثاني من بين الرأىين الدائرين حول شعر العقاد ، أحدهما :
يجعله نائرا ، والاخر شماعرا ، حيث اهتدى هو وجهه الى نماذجهم
في الشعر الاوربي الرومانتيكي في مواجهة المحافظين في الشعر العربي ، وما
ذهب اليه صلاح عبد الصبور في مقاله (شاعرية العقاد) (٦٤) ، حيث است
جعله " شاعر الانتقال " .

وهكذا نجد العقاد الشاعر في دواوينه (٦٥) الاحد عشر شهرا
حوله في الشعر ما اتاه حوله في النشر .

-
- (٦١) الهلال - عدد خاص من العقاد ، ابريل ١٩٦٧ ، ذكريات في ذكرى
العقاد - عبد الرحمن صدقي ، ص ٤ وما بعدها .
(٦٢) الهلال نفسه ، ص ٢٠ .
(٦٣) الهلال نفسه ، ص ٦٠ وما بعدها .
(٦٤) الهلال نفسه ، ص ٦٨ ، ونشرها بكتابة (نبعة الفكر) ، دار المريخ ،
الرياض / القاهرة ، ١٩٨٢ ، ص ٤١ - ٥٨ .
(٦٥) بما فيها ديوانه المختار من دواوينه .

ومن الجوانب المهمة في منهجية العقاد أسلوبه أو طريقته في التعبير ،
أو مذهبه في الكتابة ، وإنما نطالع مقالاً للعقاد نشره بالهلال سنة ١٩٦٢ -
بم عنوان (أسلوب الكتابة في المستقبل) (٦٦) يبين فيه أن أسلوب الكتابة
سيظل في أسلوبين : أحدهما للحفاوة والزينة ، والآخر للصفحة والضرورة ، ويرى
هذا الاختلاف فارقاً بين أسلوب الكتابة في عصر الحصان أو عصر الصاروخ ، -
ويبين ارتباط الأسلوب بصاحبه مجازة للنظرية التي كانت ترى أن الأسلوب
هو الرحل ، وهي نظرية أعيد القول فيها الآن بعكس ما كانت عليه لدى قائلها
"بوفون" . Buffon

يقول العقاد :

" فالأسلوب الكتابي مسألة إنسانية لا يتجرد من طابع الكاتب ولا من
سماته " الشخصية " في موضوع من الموضوعات ولو كان خيراً من أوجز الأخبار
ولهذا أقبل إن الأسلوب هو الرجل أو أن الأسلوب هو الإنسان " .

وسواء وافقنا على أن الأسلوب هو الرجل أم لا ، فإننا نحرص على ذكر
سماته الأسلوبية كما حددها أحمد هيك في كتابه (تطور الأدب الحديث في
مصر) (٦٧) ، وسأها (طريقة التعبير المحكم) ويعلل لذلك بقوله :-

" لأنه يعتمد إلى التعبير عما عنده بالفاظ وجمل محكمة . فيها الدقة
وفيهما القصد ، وفيها التركيز ، وفيها دساسة الزاد قبل أن يكون فيها روضق
الشكل ، فلا إفراط في المقدمات ، بل أحياناً لا تكون هناك مقدمات ، ولا لجوء
إلى التكرار أو اللف أو التوكيد بالكلمة أو بالجملة ، ولأنه لا محل لشيء من ذلك ،
وإنما المحل الأول لأعطاء أو فرمعان وأغزر أفكار " .

(٦٦) السنة ٢٠ - ديسمبر ١٩٦٢ ، ص ٢ وما بعدها .

(٦٧) ص ٢٨٢ - ٢٨٧ .

ثم يقف مهيكل على سمات لاسنوب العقاد ويرأها في التذهيلات الضابطة
والاحتراسات التحفظية ، والميل الى التفصيلات النطقية لا اللغوية ، -
واستخدام المعادلات العنصرية لا البدئية ، مع الابتعاد عن الزخرف .

من هنا ذهب محمود تيمر الى انه اذا كان لكل كاتب عيب " فالعيب الجلي
في كتب العقاد انها لا تصلح ان تزجى وقت القارى قبل النوم حيس
يتكى على الوسادة . (٦٩) .

يتأمل
ومن منهج البحث الادبي عند العقاد بعده متوجها رجبا ، فالى جانب
اهتمامه النفسى ، يولى التاريخ اهتماما كبيرا ، كما يهتم بالناحية اللغوية (٧٠)
وهذا سبب من اسباب تنوع آراء الباحثين حول منهج العقاد ، ذلك ان فهم
منهجية العقاد نابع من فهم طبيعة التفكير لديه ، فهو يتحدى التطبيق ، كما
يقول :-

" فقد اراد الله - وله الحمد - ان يخلقنى على الرمز منى متعدد
تعدى ما خصوصيا " لكل تطبيق من التقاليد السخيفة التى كانت ولا تزال شائعة
في الهلال المصرية والهلال الشرقية على العموم " (٧١) ، وهو يخضع للمنطق الد
الدامى الى الظنون ، يقول عن صفاته :

" ومن هذه الصفات ان الظنون عندى قوية السلطان ، وطلة ذلك عسدى
معالجة التفكير المنطقى فى كل شىء " ، فليس اسهل فى المنطق من فتح ابواب
الاحتمالات ، اما اغلاقها - او الجزم بنفيها - فلا يكون الا ببرهان قاطع
والبراهين القاطعة قليل . (٧٢)

(٧٠) ناقشنا جانبها من هذه القضية فى كتابنا (قراءات وسحارات) ، المجلس
الاطى للفنون والادب ، ١٩٧٦ ، ص ٥٢ - ٦٢ (منهج البحث الادبى
عند العقاد ، وقد نشرته من قبل بالثقافة بصر ، مارس ١٩٧٥ .

(٧١) انظر ص (٢٧)

(٧٢) أنا - ص ٢٢

وهذا ما جعله - في غيرة تعمده للتجديد - يبري ان " التجديد
والحفاظة عندى يلتقيان في معظم الاسود " (٧٣) ، كما انه ولج باسرا ز
الحس الشائع والحقيقة المجهولة ، يقول عن منهجه في التراجم والسير :

" ان - كبرى كتابتها لازمة لابرار حتى ضائع او حقيقة مجهولة ، وتستوى في
ذلك سير - لنا " ، السوابح من كل طراز ، وفي كل طبقة من طبقات العظمة
واسود ، فالخامس الاكبر حتى تأليف كتابي عن " ابن الرومي " انه مجهول القدر
يخوس الحق بصطلح على نحسه والنزول به عن قدره جهل النقاد وظلم
الاعراض والا هراء " ، وان يبالغ مبالغة نابضة من الحدة العقادية ، ويضفى
يقول عن ابن الرومي :

ورأى فيه انه اعظم امراء العالم بلا استثناء في ملكة الوجدان التصويرى
والعاطفة المثلة في قالب الحس والخيال ، ولكن نقادنا يذكرونه ويحبون انهم -
يتعطفون عليه اذا الحقوه بشاعر كالبحتري او ابن المعتز على غير مساواة ، وهما
بالقياس اليه كمن ينطق بحروف الجها في مجالس البلغاء " (٧٤) .

ويتضح من النص ظل العقاد ، واسرافه في المبالغة النصفة اسرافه نفسى
المبالغة المجحفة في مجال آخر ، ويحدثنا عن طريقه في الكتابة حيث التفتيح
والمعاودة ، وعن خطته في الماشقة حيث يعد الى اقوى الحجج بداعة فيقوضها
ثم يقنوها بالضعف الحجج ويلخص منهجه في تأليف الكتب (٧٥) نفسى :
التقسيم والتنظيم .

(٧٣) انا ، ص ٣٢٢ .

(٧٤) انا ، ص ١٠٨ (منهجى في كتابه النقالات .

(٧٥) انا ، ص ١١١ ، ١١٢ - فصل بهذا العنوان .

وهذه الخطوط العامة التي يصرح العقاد بها تعين على فهم منهجه وطريقة تفكيره قبل ان نحض مع "المنهج العلمي والفلسفي" لديه كما ناقشه حلي مرزوق في كتاب "تطوير النقد والتفكير الادبي الحديث في مصر - ميسر" المجلد الاول من القرن العشرين (٧٦) ، وكما وقف فيه على شمولية منهج العقاد ومذهبه الانساني التكافلي ، ونظرتة للحياة على انها مادة روح او شكل وفحوى اوصورة وهيولى ، حيث لا غنى لاحدهما عن الاخر ، واسباسه بالنسبة فى الحكم الادبي ، والوحدة المنصورية ، والشعور الصادق ، - والاصالة ، وأخذ فكرة الخيال عن الرومانتيكيين وتفرقة بين الخيال والوهيم او التوهيم Fancy الذى رعى به شوقيا ، واعتاده "كلودج" نفسى ذلك .

وقد ارتبط التصور والخيال "بكلودج" ، وقد رأوا ان من اولى فضائيل خيال الشاعر ايجاد الفكرة بما ييسر ابتكارها ، وتشكيل الفكرة بما ييسر تصورها ، واظهارها فى فن القول ، وذلك لتحقيق الحيوية ، والخصوبة والدقة ، واذا كان جين لوك ، قد شبه العقل البشرى بصفحة ورق بيضاء يترك فيها العالم الخارجى انطباعات ، فان قدرة التصور فى ربط الصور المتناظرة اشاعت نظرية Association of ideas ترابط الافكار

وقد شرح كلودج نظريته فى الخيال كاطلة فى كتابه (سير ذاتية) ، الذى كتبه سنة ١٨١٥ ، ونشره سنة ١٨١٧ ، وكان احد الخسة المعظام فيها ساهم باردا (٧٧) وهم : بلنك ، وكلودج ، ووردزورث ، وشلى ، وكيبس وقد اهتم كلودج النظرية فى هذه المقدمة لمجموعة اشعاره والتي جعلت الى هذا العمل النقدي ، وقد صرح بأن كانت فيه حتى لمصرح بأن فلسفته اصكت بتلابيه كيد علاقته ، وقد مضى ، مفرقا بين التصور والخيال ،

(٧٦) دار المعارف ، ط ١ ، ١٩٦٦ ، ص ٤٢٦ - ٤٩٨ .
(٧٧) Bokra, M. The Romantic Imagination Oxford Paper books, 1961

رقم الايداع
١٩٨٠/٢٨٢

مطبعة جامعة عين شمس
٨٢ - ٨١ / ١٩٦ ٥٠٠ نسخة

27. Conrad in the Nineteenth Century, ed. cit., p. 148.
28. Alfred Tennyson, Poems & Plays, Oxford University Press, London, 1968.
29. Joseph Conrad's Life & Letters, ed. cit., p. 216.
30. Letter to Cunningham Graham, January 14, 1898, Ibid., pp. 222-293.
31. "In Memoriam", ed. cit.
32. Ibid.
33. Terry Eagleton, Criticism & Ideology, Verso, London, 1980, p. 159.
34. The theme of the corrupt city which chrystallizes man's loneliness is recurrent in 19th century literature and it foreshadows a similar motif in the 20th century. Marlow's cold city is a direct antecedent of Eliot's "unreal city" in "the Waste Land", and "Cactus Land" in "The Hollow Men".
35. Joseph Conrad Colloquy in Poland, ed. cit., pp. 25-33.
36. Criticism & Ideology, ed. cit., p. 140.
37. Idem.

Lo! thy dread empire, Chaos! is restored;
Light dies before thy uncreated word,
Thy hand, Great Anarch! let's the curtain fall;
And universal Darkness buries all.

Dunciad Book 4, l. 649.

18. A Theory of Literary Production, ed. cit., p. 100.
19. Ibid., p. 86.
20. Ibid., p. 203.
21. In his two novels set in the past, Things Fall Apart and Arrow of God, the Nigerian novelist Chinua Achebe portrays the life order of an African community in all its complexity. It is obvious that these novels were partly meant as an answer to the colonial image of the African savage who lacks restraint and knows no organized life.
22. A Theory of Literary Production, ed. cit., p. 263.
23. Idem.
24. Ibid. p. 26.
25. G. Jean-Aubry, Joseph Conrad's Life & Letters, Doubleday New York, 1927, I. pp. 268-270.
26. Ibid., pp. 229-230.

8. Arnold Kettle, An Introduction to the English Novel: Henry James to the Present Day, Hutchinson University Library, London, 1953.
9. Cedric Watts, "How Many Kurtzes Are In 'Heart of Darkness'", Joseph Conrad Colloquy in Poland 5-12 September 1972, II, Polish Academy of Sciences, Warsaw, 1975, p. 46.
10. Ian Watt, Conrad in the Nineteenth Century, University of California Press, Berkeley, 1979, p. 161.
11. Ibid., pp. 158-159.
12. Ibid., p. 160.
13. "Author's Note, Youth, Heart of Darkness and The End of the Tether, ed. cit., p. VI.
14. quoted by Ian Watt, Conrad in the Nineteenth Century, ed. cit., p. 131.
15. "Geography & Some Explorers", ed. cit., p. 21.
16. Ibid., pp. 13-14.
17. Pope, a staunch defender of law & order, writes,
Religion blushing veils her sacred fires,
And unawares morality expires,
Nor public flame, nor private, dares to shine,
Nor human spark is left, nor glimpse divine,

Notes

1. Pierre Macherey, A Theory of Literary Production, trans. Geoffrey Wall, Routledge & Kegan Paul, London, 1978, pp. 105-135.
2. Heart of Darkness was serialized in Blackwood's Magazine in issues of February, March & April 1899.
3. Joseph Conrad, Letters to William Blackwood & David S. Meldrum, ed. William Blackburn, Duke University Press, 1958, p. 37.
4. _____. Youth, Heart of Darkness and The End of the Tether, Dent, London, 1961. All further page references are to this edition.
5. _____. "Geography & Some Explorers", Tales of Hearsay & Last Essays, Dent, London, 1963, p. 17.
6. In the atmosphere of competition & conflict over Africa the reference to a French man of war was not without significance. D. Meldrum, the literary adviser of Blackwood's publishing firm wrote to W. Blackwood on January 14, 1899 "Conrad's story is a very wonderful piece of writing, is it not? And such a show up for [for] the French!" Letters to William Blackwood & David S. Meldrum, ed. cit., p. 43.
7. Albert Gnerard, Conrad The Novelist, Harvard University Press, 1958, p. 34.

chooses to cover it up, because it was too dark to be acknowledged and annexed. The conquering explorer and bearer of the spark in Conrad's Heart of Darkness has started his retreat to defensive positions. In this sense the novel is prophetic.

لان الخيال عملية خلق ، بينما التصور عملية ترابط والخيال اولى Primary
Imagination وهو قدرة تتوسط بين الاحساس والادراك ، وثانوى او
شعرى Secondary Imagination وهو صدى عن الخيال السابق
والاول غير ارادى ، والثانى يتصل بالارادة الواعية ، وقد اتفق مع "كانت"
فى الخيال ، وهو عند كانت الخيال المولد ، وفى الخيال الاول وهو عند كانت
الخيال المجتمع .
وتمثل العقل الفنى لدى كولردج (٧٨) فى آتة رمز مرتبط بين العالم
الطبيعى والعالم الفكر ، ولا بد من وجود قوة الخيال لتتمكن الشاعر من تصوير
العالم الخارجى فى وعيه الخاص ، ليجعله رمزا وليد ذهنه الخاص ، لهذا
كان لطيفا بالأحلام ، واللاوى باعتبارها مصدر المادة الاولية للشعر ، حين
يعمل الخيال تحت امرة العقل .

وقد استقى العقاد نظرية الخيال هو صاحبها شكرى والسازنى من
الرومانسين الانجليز ، وان ذهب باحث (٢١) الى اضطراب العقاد فى نظرية
الخيال الشعرى فى مرحلة الاولى مقروا انه لم يقرأ خلالها "كولردج" ، وان
"هارلىت" Hazlitt هو الذى ظلله فى كتابه (روح العصر ،
The Spirit of the age حتى صحت نظرية العقاد فى مرحلته
الثانية ، ولا يتوافق الباحث على ذلك ، ان ذهب الى ان نظرية الخيال
كانت صحيحة لدى شكرى والسازنى وبخطيرة لدى العقاد ، برغم بيان وظائف
الخيال عند العقاد فى : خلق الوحدة المضمومة ، والكشف من حقائق الاشياء
والتجسيد والرمز : خلق الحياة على الثوابت والجواريح او التشخيص
Personification - على الرغم من ايمانه بهذا الفهم الجديد
للعقاد يذهب هذا المذهب الذى لا يتسم مع حقيقة الصلات الثقافية بينه
وبين زمليه ، ومع حقيقة التحصيل الادبى الواسع لدى العقاد .

Coleridge, Biographia Literaria

(٧٨)

(٧٩) مجلة الثقافة ، محمد عبد الهادى محمود ، مارس ١٩٧٥ ، ص ٢١

وله كتاب (مقدمة لدراسة العقاد) ، القاهرة ١٩٧٥ .

وفي تناول العقاد لابن الرومي ، واهى نواس مزج بين التعبير عن النفس
والضيق الجغرافي ، وقد تناول نقادنا العرب المذهب النفسي ، من هؤلاء
عز الدين اساميل في (التفسير النفسي للأدب) (٨٠) ، واحد كمال زكي
في (النقد الادبي الحديث - أصوله واتجاهاته) (٨١) ، وكانت قد
ظهرت له تطبيقات ودراسات لدى : محمد خلف الله (٨٢) ، والنويهي (٨٣)
ومن قبل امين الخطي (٨٤) ، ودراسات للمعداوي و مصطفى سويف .

وفي تصوري أن العقاد إذا أراد انصاف ابن الرومي - ارتكز على مبادئ
حياته من شعره باعتبار الشعر تعبيرا عن المواطن الذاتية ، وهذا اهتمام
يفوق مجرد الضحي النفسي ، لاننا لا نستطيع ان نضعه في مقابل من
طه حسين آنذاك في عدم الاهتمام بحياة الشاعر الا بالقدر اللازم لفهم
شعره كما صنع مع المتنبي .

وهذا المذهب النفسي عند العقاد تناوله ضئيل من قبل الفلاسفة
* الجوانية * عند العقاد (٨٥) ، سواء في حديثه عن ابن الرومي أو طافير
أو الغزالي ، وموقفه من نظرية المعرفة .

(٨٠) دار المعارف ، ١٩٦٣ ، كما ناقض ادب العقاد في كتابه :

الأدب وفنونه ، القاهرة ١٩٥٨ ، والشعر العربي المعاصر ،

القاهرة ، ١٩٦٢ .

(٨١) الهيئة المصرية العامة ، ١٩٧٢ ، ص ١٦٩ وما بعدها .

(٨٢) من الوجهة النفسية في دراسة الأدب ونقده ، لجنة التأليف والترجمة

والنشر ، ١٩٤٢ .

(٨٣) نفسية ابن نواس ، الخانجي بصر ، ١٩٧٠ .

(٨٤) البلاغة وطم النفس ١٩٣٩ - انظر حديث هيد العزيز الدسوقي

تطور النقد العربي الحديث في مصر ، الهيئة ، ١٩٧٢ ، ص ١٩٧٢ .

(٨٥) الهلال ، ابريل ١٩٦٢ (الجانب النفسي عند العقاد) ص ٨٩ .

وانظر كتابه نظرات في فكر العقاد ، القاهرة ١٩٦٦ ، واحد الحوفي

الاتجاه النفسي في دراسة العقاد النقدية ، ١٩٧١ .

وما رأيناه من سمة الانفعال في نقد العقاد يقد طمبها في منهجه التاريخي
أحمد عبد الرحيم مصدفي (٨٦) حتى ليذهب الى مثل ما قررنا في نقده من
اختلاف منهج العقاد في تناول المعاصرين عنه في تناول غير المعاصرين . ولعل
في حديث أمين الخطي عن فن التراجم ما يقفنا على كثير من المواقف ازاى منهج
العقاد في السير ، وقد افاد الخطي - حقيقة - في مقدمة كتابه (مالك بن
انس : ترجمة مجردة) ، و (مالك : تجارب حياة) ، حيث رفض منهج
العقاد في الدفاع عن المترجم له او رد الهجوم عليه ، اى يهدم الاساس السدي
ذكره العقاد في كتابه (انا) حول انصافه من يكتب عنهم من القدماء .

ولقد اهان عبد المحسن بدر عن صلة ذلك بنزعه العقاد للكتابة عن العبارة
من صفاتهم الكاملة والثالية دون اهتمام بمظاهر الضعف فيها ، ويرى لذلك صلة
باعترازه الشديد بذاته واستعلائه على الآخرين ، وصلة بنزعه العقدي النطقية
الحادة . (٨٧)

وانا كان العقاد متبوعا موسوعيا في ثقافته وكتاباته ، فاننا نجد به قصر
في بعض الموضوعات ، وبجيد في غيرها ، ويمكن تلخيص ذلك في بعض كتاباته
المتنوعة ، ومن هنا كان كثير من معاركة الادبية .

كما اننا لانجد - فيما كتب - اهتماما بأبعاد جنسين ادبيين من أبرز
اجناس الادب المعاصر وهما فن القصة ، وفن المسرحية ، آية ذلك ان نقيد
مسرحية قهبيز كان نقدا بعيدا عن هذا الفن بما يقطع - كما قد بنا - بخروج
العقاد عن الموضوعية في هذا النقد ، وما يؤكد عدم اهتمامه بالأصول الفنية
لهذا الجنس الادبي ، ونسوق جز ٢ ما قاله في نقد قهبيز لاحد شوقي ، حيث
نرى هبوط النقد وحدته على حد سوا ، يقول :

(٨٦) الهلال ، ابريل ١٩٦٧ (عباس العقاد مؤرخا) ص ١١٠ - ١١٢ .
(٨٧) تطور الرواية العربية الحديثة في مصر ، ١٩٢٠ - ١٩٣٨ ، دار
المعارف ط ٢ ١٩٦٨ ، ص ٢٥٧ وما بعدها .

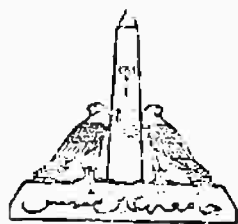
• وسنداً بالكلام من النظم في رواية تميز لانه أخرى الأشياء أن يجيده
شوقي وأولاه أن يكون معجزته في الصياغة الشعرية بعد مراسها نيفاً وأربعين
سنة ، فلو بلغ شوقي في صوغ روايته مبلغ الاتقان المعجز لما كان كثيراً منه
بعد طول العراس وكثرة المنظوم ، ولما جازله أن يزهي بهذا لانه قسطن
ضبط من النبوغ ، اولانه نبوغ مسر لكل من يعالجه في سعة وقت ورفه هيش
وفروغ له من كل شافل سواء ، فهو كمال أدنى الى النقص واحسان اقتسرب
الى الاصالة .

هذا اذا بلغ شوقي في النظم غاية الاتقان فكيف نرى يكون لومة وعذ لانه
اذا هبط من غاية الاتقان ؟ ثم هبط من الاتقان المضمول ؟ ثم هبط الى الصفف
والعثاة ، فاذا هو يقع من الاعجاز بالمعجز ويرضى من السبق بالتخلف .

ان لومه على هذا المعظم ، وانه لاشد من لوم الفناء الدمية تهمل
شبابها طرها ، ولا زينة لها غير جمال الشباب * (٨٨)

ولن نعرى لذلك من باب ابهما اجدر بالعقاد : صفة الشعرية أم اللائرية ؟
اذ نرى ان الرجل - بمواهبه الكبرى - يبرز في المجالين حفا ، وقد تشدّ ضا
طرقا من الحديث من ابداهه النشوى في أغراض شتى ..
وهكذا ضبط المعكاد بالقدية ، فأشارتعدد الآراء حول بهقدر
ما في موسومته من تعدد وجوع .

(٨٨) رواية تميز وأعلام الشعر) دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، ط ١



AIN SHAMS UNIVERSITY WOMEN'S
COLLEGE FOR ARTS, SCIENCE
AND EDUCATION

ANNUAL REVIEW

ARTS SECTION

No. 12

AIN SHAMS UNIV. PRESS
1986

CONTENTS

renaissance elements in The Adventures of
Don Quixote: A Study of Cervantes' Critical Stance
by Eva S. Saigh .

2- Significant Incongruities in Conrad's Heart of Darkness
by Radwa Ashour.

RENAISSANCE ELEMENTS IN
THE ADVENTURES OF DON QUIXOTE

:::
A STUDY OF CERVANTES' CRITICAL STATEMENTS
:::

Eva S. Saigh

The purpose of this paper is to examine Miguel de Cervantes' views on poetry and literature as he expressed them in The Adventures of Don Quixote.⁽¹⁾ This will entail the compilation of his ideas from the different parts of the novel, as well as their analysis and classification. From this, I hope to find out how far his ideas can be related to European critical thought of the 16th and 17th centuries and how far his views fall into a coherent system.

Cervantes' critical views in Don Quixote deserve to be studied for more than one reason. He is one of the greatest literary figures, not only in Spain but in all European literature and, as an artist, he was bound to criticise his work during the time of its composition. It is not often, however, that the writer practises this criticism in the work of art itself as does Cervantes in Don Quixote, where he explains what he is trying to do and relates it to the literary productions of other writers of his time and to the statements of other critics. He defends a certain conception of art and a view of life consonant with his critical values and, from the critical point of view, reveals affinities with certain theories of literature.

Cervantes' statements on art acquire particular significance in Don Quixote since it is a novel in which "The interaction of literature and life is a fundamental

theme. . ."(2) The hero of the novel, Don Quixote, illustrates the effect of bad literature on a deluded intelligence. He tries "to turn life into art while it is yet being lived,"(3) with the result that not only "the boundaries between what is imaginary and what is real, but those between art and life, are indeterminable."(4) The effect of this imaginative literature is not limited in the novel to Don Quixote, who is an extreme case, but has a hold also on the Duke and Duchess who in actual fact enact fantastic situations for their amusement, on the Innkeeper who is liable to turn into a second Don Quixote, and on those cultured people who "devise imitation Arcadias. Books affect people's lives; literature is part of their experience; Cervantes' novel is, among other things, about books in life,"(5) In the "Inquisition" held in the library over Don Quixote's books in which the barber and the priest sort out the books that are to be burnt, it is amusing to note that the priest himself had a very intimate knowledge of these books and had obviously read them with great interest." (I,6)

Since the hero could not distinguish between life and fiction and "everything that our adventurer thought, saw or imagined seemed to follow the fashion of his reading,"(6) it follows then that

the discussion of history (matters of fact) and poetry (fiction) in II,3 . . . springs therefore, like other such passages, from the very heart of the novel. (7)

Furthermore, these views are^{so} reminiscent of the general ideas of the Renaissance and the revival of classical ideas that one is driven to the possibility of relating them to what one may call an international movement of criticism in the 16th century.

* * * * *

All the characters who discuss the basic problems of literature in the novel speak for their author, including at times, strangely enough, Don Quixote himself. He is at times in an ironic position because the aim of the novel is an attack on novels of chivalry and the deluded hero is a prey to them. Author and characters alike attack these novels of chivalry which are strongly defended by Don Quixote who attempts to live the life of a knight errant, to exclude the present, to resurrect an ideal and illusory past and to "turn life into art." He had buried himself so much in his books that he

filled his mind with all that he read in them, with enchantments, quarrels, battles, challenges, wounds, wooings, loves, torments and other impossible nonsense; and so deeply did he steep his imagination in the belief that all the fanciful stuff he read was true, that to his mind no history in the world was more authentic. (8)

But Don Quixote, who ends by denouncing books on chivalry, has his sane moments in the novel during which he impresses his listeners with his wisdom and wide learning.

Whenever he discusses problems of literature, his arguments are as sound as those of the author or his amazed listeners - such as the Canon, the students and writers that he met on the way. Again and again,

Don Quixote pursued his discourse so rationally and in such well-chosen language that none of his hearers could possibly take him for a madman just then. (9)

* * * * *

Miguel de Cervantes Saavedra was born in Alcalá in Spain in 1547 of an ancient but impoverished family. His father, who was a doctor, moved his family several times to different towns in the hope that he would make a better living in the next one. Fortunately, Miguel got his education in his formative years from a schoolmaster well-oriented in the new critical spirit which was centred at that time in Italy.⁽¹⁰⁾ In 1568, at the age of 21, he took service in Italy and, in 1571, took part in the battle of Lepanto which he described in the Captive's tale in Don Quixote (I, 39-41). As also described in the tale, he took part in other campaigns until 1575, when he was captured by pirates as he was on his way home, and was made prisoner in Algiers for five years. He was released in 1580 and returned to Spain. He tried hard to get a government job and to make a living out of writing and in both of these he was not successful at first. He wrote six plays and a pastoral novel, Galatea, all of which were failures. It was only when the first part of Don Quixote

was published that he found immediate success. In 1613, he published a collection of short stories called Novelas Ejemplares ("exemplary novels") and a tale of adventure, Persiles y Sigismunda. He died in 1615, a year after the publication of the second part of Don Quixote. The book, however, was already famous and the first part reprinted several times and translated into English and French: Cervantes was thus able to speak in Part II of the reception of his novel and to answer some of his critics. Like many Elizabethans of the day, Cervantes was a man of action as well as a man of letters. ". . . Edmund Spenser, Walter Raleigh and Philip Sidney were respectively an administrator, a courtier and adventurer, and a soldier, yet for all ^{that} the finest poets of their day."⁽¹¹⁾ Unlike them, however, (except perhaps Spenser in the last months of his life), he found it hard to make a living.

Italy was the centre of literary criticism in the 16th century and its influence on Europe persisted until the middle of the 18th when it was replaced by France. The Renaissance came later to Spain than it did to France and literary criticism did not begin there until the very end of the 16th century when it was completely dependent on Italian authorities.⁽¹²⁾ Owing to his knowledge of the Italian language and to the years that he spent there as a young man, Cervantes must have been greatly influenced by the cultural movement in Italy.

* * * * *

- The Prologue to Part I of the novel captures the essence of Cervantes' critical attitude. It takes the form of a conversation between Cervantes - who portrays himself ironically as an author facing an imaginary literary problem - and a friend who attempts, no less ironically, to solve it for him. It consists of a satirical indictment against contemporary literary conventions and a statement of new ones based on a balance between classical authority on one hand and "common sense" on the other. The whole is written in a sharp, satirical tone.

Cervantes tells his friend of the difficulties that he finds in writing a prologue, for he would have preferred not to write one, but to present the book to the reader "naked and unadorned, without the ornament of a prologue or the countless train of customary sonnets, epigrams and eulogies it is the fashion to place at the beginnings of books,"⁽¹³⁾ The passage in which Cervantes states his problem is somewhat long but should be quoted as it contains his criticism of contemporary writing. He draws a sharp contrast between his own concise style with that adopted by his contemporaries.

He wonders what "that ancient law-giver they call the public" will say when they see him come out with

a tale as dry as a rush, barren of invention, devoid of style, poor in wit and lacking in all learning and instruction, without quotations in the margins or notes at the end of the book; whereas I see other works, never mind how fabulous and profane, so full of sentences from Aristotle, Plato and the whole herd of philosophers, as to impress their readers and get their authors a .

reputation for wide reading, erudition and eloquence? And when they quote Holy Scripture! You will be bound to say that they are so many St. Thomases or other doctors of the church, observing such an ingenious solemnity in it all that in one line they will depict a distracted lover and in the next preach a little Christian homily, that is a treat and a pleasure to hear or read. My book will lack all this; for I have nothing to quote in the margin or to note at the end. Nor do I even know what authors I am following in it; and so I cannot set their names at the beginning in alphabetical order, as they all do, starting with Aristotle and ending with Xenophon - and Zoilus or Zeuxis, although one of them was a libeller and the other a painter. My book must go without introductory sonnets as well - or at least sonnets, by dukes, marquises, counts, bishops, great ladies or famous poets; although were I to ask two or three friends in the trade, I know that they would give me them; . . . (14)

The reply of the author's friend reaches even more satirical heights. He tells him that the sonnets, epigrams and eulogies can be written by himself and "baptised" and given any names he likes, "fathering them on Prester John . . . or the Emperor of Trebizond. . ."; as for the quotations from books, all he has to do is to work in some phrases or bits of Latin that he knows by heart; and as for the references to authors, he can look for a book where the authors are listed from A to Z and put this same alphabet into his book. "Besides," he concludes cynically, "nobody will take the trouble to examine whether you follow your authorities or not . . ." (15)

What makes the satire so daring is the fact that such falsifications were not only put into practice but received theoretical justification. Imitation of the classics led to what Hallam calls the cult of external form (16) which depends mainly on mechanical precepts and rhetorical devices.

Vida's Ars Poetica reveals many rhetorical tendencies and suggests, among other things, "that the poet should prepare a list of phrases and images for use whenever occasion may demand."⁽¹⁷⁾ Thus, Cervantes was criticising the established literary and critical conventions of his time.

The problem is then solved for Cervantes by his friend, since the book is an "invective against books of chivalry, which Aristotle never dreamed of, Saint Basil never mentioned, and Cicero never ran across." Being a fictive work,

Nor do the niceties of truth or the calculations of astrology come within the scope of its fabulous narrative; nor is it concerned with geometrical measurements; nor with arguments that can be confuted by rhetoric; nor does it set out to preach to anyone, mingling the human with the divine. . . (18)

Having stated what fiction is not, he then turns to what fiction should be. It is an imitation, he says, "and the more perfect the imitation the better your writing will be." He then defines what style he should use and the effect he should have on his readers. Again, the passage is important enough to be quoted:

You have only to see that your sentences shall come out in plain, in expressive, in sober and well-ordered language, harmonious and gay, expressing your purpose to the best of your ability, and setting out your ideas without intricacies and obscurities. Be careful too that the reading of your story makes the melancholy laugh and the merry laugh louder; that the simpleton is not confused; that the intelligent admire your invention, the serious do not despise it, nor the prudent withhold their praise. In short, keep your aim steadily fixed on overthrowing the ill-based fabric of these books of chivalry, abhorred by so many yet praised by so many more; for if you have achieved that, you will have achieved no small thing. (19)

Thus, Cervantes has already established in his Prologue a great many critical points. He has not only defined the nature of fiction by calling it imitation (and the more exact the imitation the better), but also the value of fiction. Cervantes points out that he does not want to preach but the effect that he wants to produce should be related to instructing the audience and to influencing it in a certain direction. As we shall see elsewhere in the novel, the emphasis will also fall on the effect of a work of art on the audience. The word "instruction" is not used in the two Prologues but it is used repeatedly by the characters in the novel. In the Prologue to Part II, however, he answers the critic who tells him that his novels are "satirical" rather than "exemplary" though they are good, to which he answers that "they could not be good unless they were good in every respect." (20)

* * * * *

Cervantes' justification of poetry contains Platonic, Aristotelian and Horatian elements although the Platonic are not basic to his concept of poetry. However, Plato's hold on the Renaissance was too strong to be ignored and his objection to poetry, as expressed in his Dialogues and The Republic, had to be met by any artist or critic commenting on poetry.

Imitation as used by Plato is not limited to any subject-matter and, when applied, refers to the relation between what he calls "the essential nature or Form" of a thing and something which is made like it. (21) The artist

does not make the essence of the thing, nor the thing itself (for that is the work of a craftsman), but he creates an appearance, gives a semblance of its existence and is therefore thrice removed from the essential. Secondly, if the imitator uses the essential and eternal as his model, his imitation of the good and true must by necessity be beautiful; but if his model is a created object, then his imitation would not be beautiful. The poet is therefore condemned by Plato, for his work is thrice removed from the truth, and thus from beauty, and is banished from the ideal state.

Cervantes, in his turn, also believes that many poets should be banished from Spain, yet his objections are directed against poets and not against poetry to which he gives superiority over all other human activities. In doing this, Cervantes follows in the wake of the Italian critics, Bernardo Tasso and Daniello, who "asserted that Plato had not argued against poetry itself but against the abuse of poetry."⁽²²⁾ This too was echoed by Sidney when he says that Plato was "banishing the abuse, not the thing, not banishing it, but giving due honor unto it."⁽²³⁾

Like Hinturno, Cervantes points out "the broad inclusiveness of poetry, which may be said to comprehend in itself every form of human learning, . . ."⁽²⁴⁾ and established the superiority of poetry over all other activities. For Cervantes, poetry is like

a tender, young and extremely beautiful maiden, whom all other maidens toil to enrich, to polish and adorn. These maidens are the other sciences; and she has to be served by all, while all of them have to justify themselves by her. (25)

Poetry, therefore, should not debase itself for the sake of the crowd or the court. It should restrict itself to great kinds of poetry "in the form of heroic poems, piteous tragedies, or gay and artificial comedies . . ." and should not run to "base lampoons and impious sonnets." Poets are the evil-doers and poetry "must not let herself be handled by buffoons, nor by the ignorant vulgar", and by vulgar, Cervantes does not mean the common and humble people, but all "who are ignorant, even if they are lords or princes." (26)

Sidney, too, complains "that base men with servile wits undertake it, who think it enough if they can be rewarded of the Printer" and these, "by their owne disgracefulnes disgrace the most gracefull Poesie." (27) Poetry, he declares elsewhere in the Apologie, is superior to all sciences and,

indeede Poetrie euer setteth vertue so out in her best cullours, making Fortune her wel-wayting hand-mayd, that one must needs be enamored of her. (28)

For "Poesie," he adds, "must not be drawne by the eares; it must bee gently led, or rather it must lead." (29)

The abuse of poetry was again condemned by Cervantes in another work, The Man of Glass, one of his "exemplary" novels, in which the main character is an eccentric but

who, like Don Quixote, is sound on intellectual matters.

When another student asked him what opinion he held of poets, he answered by saying that he had a high respect for the science of poetry but none for poets themselves; and when they wished to know what he meant by that, he went on to say that of the infinite number of poets in the world there were so few good ones that they were practically negligible; and thus, since there were no poets to speak of, he could not esteem them, though he admired and revered the science of poetry, which contains within itself all the other sciences, makes use of all of them, adorns itself with them, and cleanses them, while bringing to light its own marvellous works that fill the world with profit, delight and wonderment. (30)

He quotes Ovid and Plato to prove "the esteem in which a good poet is to be held", as divine, "vates", the beloved of the gods, but

This is said of the good poets, but what of the bad ones, the poetasters? What is there to say except that they are the most stupid and arrogant tribe in all the world? (31)

* * * * *

Cervantes did not go further into Plato's arguments against poetry because his own theory of poetry was: not a transcendental but an empirical one with its source in the Poetics of Aristotle. ^{later} He believed that the objects of imitation were not Ideas or Forms but "the actions of men," (32) and men being good or bad, we can represent them as either better, or worse, or exactly as they are. Cervantes believed that art is an imitation and that it has to be an exact imitation. At the same time, "art is not better than nature, but perfects her." (33) Thus, according to

Cervantes, authors and actors of drama hold

up to us at every step a mirror in which the actions of human life are vividly portrayed. Indeed there is no comparison which presents to us more truly what we are and what we ought to be than the play and the players. (34)

Cervantes uses the analogy of the mirror in an earlier passage when he gives a definition of drama that he ascribes to Cicero: ". . . Drama, according to Tully, should be a mirror to human life, a pattern of manners, and an image of truth." (35) The image of the mirror is suitable for his dual purpose of imitation, for it is used both as a reflection of nature and as the ideal pattern we should follow. It is as an ideal that Don Quixote is humourously called by one of the characters in the novel as the "mirror of chivalry" and he himself speaks of his horse, Rocinante, as the "flower and mirror of steeds." (36)

It naturally follows that the element of verisimilitude is essential to imitation, and is indeed equated with it, for the desired effect can never be achieved by "anyone departing from verisimilitude or from that imitation of nature in which lies the perfection of all that is written." (37) Consequently, if this is to be achieved, then the element of probability is of great importance in a work of art.

It is for this reason that Don Quixote's books of chivalry were burnt by the priest and the barber and

only one of them was spared because it was "a rare treasure of delight", in which

the knights eat and sleep and die in their beds, and make their wills before they die, and other things as well that are left out of all other books of the kind. (38)

The Canon admits that they give him a certain pleasure when he reads them, but "their adventures are incredible" and, later, that they are "beyond the realms of common sense." He points out all the "monstrous absurdities" contained in books of chivalry - wandering damsels and love-lorn princesses, dragons, serpents and giants, spells, battles and desperate encounters. (39)

Cervantes, however, permits the imitation of ideal human nature rather than actual nature in the epic form and in the epic hero who has "all those attributes which constitute the perfect hero, sometimes placing them in one single man, at other times dividing them among many." Even so, the use of such perfection is subject to the element of possibility or probability, for it should be contained in "an ingenious plot, as close as possible to the truth." (40)

* . * * * *

Dealing with the concept of imitation in antiquity, Prof. Richard McKeon asserts that

a third variant to the meaning of Plato and Aristotle may therefore be said to derive from the tradition of writers on rhetoric. In age, this view is at least contemporary with the other two

and it has perhaps an even longer and certainly less distorted history since the age of Plato." (41)

This third variant of imitation is essential to an understanding of the major critical theories of the Renaissance, for chief among the writers of rhetoric was Horace who introduced a new meaning to imitation and contributed greatly in directing Renaissance critical thought. Aristotle's influence on Europe may date from the 16th century, but Horace's influence began much earlier and "At no period from the Augustan Age to the Renaissance does the Ars Poetica seem to have been so widely lost." (42) Spingarn also quotes a letter written in 1508 by Juan de la Cueva which illustrates the general influence of the Italians on Spanish criticism and of the sovereign position held by Horace in the critical style which he sets down in his Ars Poetica. (43)

Aristotle's theory that art imitates nature, of fiction against reality, of poetic truth against the historical event, was transformed by the rhetoricians of antiquity: "Truth, if it is discussed, is usually measured in these later times by asking whether or not the event took place, and whether the object was such as it is represented." (44)

With Horace and the rhetoricians, the emphasis shifts from the work of art in relation to the universe to the work of art in relation to the audience. The prominence given to the effect of a work of art on an

audience was to furnish a criterion of art:

Horace's criticism is directed in the main to instruct the poet how to keep the audience in their seats until the end, how to induce cheers and applause, how to please a Roman audience, and, by the same token, how to please all audiences and win immortality. (45)

Once the interest shifts from the work of art to the audience, imitation will be important only in so far as it produces an effect on that audience and not as an essential and basic structure of the work of art.

* * * * *

The concept of imitation held by Cervantes, as well as many of the critics of the Renaissance, was the one expressed by Aristotle in his Poetics:

It will be clear from what I have said that it is not the poet's function to describe what has actually happened, but the kinds of thing that might happen, that is, that could happen because they are, in the circumstances, either probable or necessary. The difference between the historian and the poet is not that the one writes in prose and the other in verse; . . . The difference is that the one tells of what has happened, the other of the kinds of things that might happen. For this reason poetry is something more philosophical and more worthy of serious attention than history; for while poetry is concerned with universal truths, history treats of particular facts.

By universal truths are to be understood the kinds of thing a certain type of person will probably or necessarily say or do in a given situation; and this is the aim of poetry, although it gives individual names to its characters. (46)

Cervantes also distinguishes between the poet and the historian in the same Aristotelian terms:

. . . but it is one thing to write as a poet, and another as a historian. The poet can relate

and sing things, not as they were but as they should have been, without in any way affecting the truth of the matter. (47)

Sidney also compares history with poetry and finds history lacking in those qualities which poetry has:

. . . the Historian . . . is so tyed, not to what shoulde bee but to what is, to the particular truth of things and not to the general reason of things, that hys example draweth no necessary consequence, and therefore a lesse fruitfull doctrine. (48)

Poetry, on the other hand, is not "bound to tell things as things were" and its examples can give delight and can teach through beauty. (49)

It becomes evident, however, that the Renaissance critics, like Cervantes, "did not completely understand the ideal element in Aristotle's conception." (50) Cervantes finds common traits between poetry and history both in subject-matter and in their effect: historical books and "their valorous exploits will entertain, instruct, delight, and surprise the highest intelligence that reads them. . . and you will rise from reading them learned in history, enamoured of virtue, instructed in goodness, improved in manners. . ." (51) History is described by him as the mother of truth, "rival of time, storehouse of great deeds, witness of the past, example and lesson to the present, warning to the future." (52)

Consequently, the Aristotelian distinction between poetry as dealing with universal truths, and history as dealing with particular facts, is removed by Cervantes,

as it had been removed by other writers and critics of the Renaissance - such as Daniello and Castelvetro - both of whom found that poetry and history had much in common for both represent vices and virtues, "both teach, delight and profit at the same time." (53)

Castelvetro in common with most of the critics of the Renaissance seems to misconceive the full meaning of ideal truth; for to the Renaissance . . . truth was regarded as coincident with fact; and nothing that was not actual fact, however subordinated to the laws of probability and necessity, was ever called truth. (54)

* * * * *

As we have seen earlier, the work of Horace and the rhetoricians was directed at the audience and one of the functions of poetry was to please or to instruct - "Poets aim at giving either profit or delight, or at combining the giving of pleasure with some useful precepts of life" (55) for the poem "is begotten and created for the soul's delight". . . (56) Horace adds that "The man who has managed to blend profit with delight wins everyone's approbation, for he gives his reader pleasure at the same time as he instructs him." (57)

In the same way, Cervantes requires the artist to have the same effects on his audience for, when he speaks of the drama, he says that the audience coming out of a good play should be

entertained by the comic part, instructed by the serious, surprised by the action, enlivened by the speeches, warned by the tricks, wiser for the moral, incensed against vice, and enamoured of virtue. (58)

Furthermore, in both Horace and Cervantes, credibility is instrumental for imitation^{to} achieve its end, otherwise the audience would neither be delighted nor instructed. Imitation therefore should give the semblance of life or literal truth. As Horace points out, "Works written to give pleasure should be as true to life as possible, and your play should not demand belief for just anything that catches your fancy." (59) His advice to the artist is therefore

that the experienced poet, as an imitative artist, should look to human life and character for his models, and from them derive a language that is true to life. (60)

Again, with regard to the question as to whether a poem is the work of nature or of art, both Horace and Cervantes give the same answer. Horace speaks of the necessity of "native genius" which has to be cultivated:

The question has been asked whether a fine poem is the product of nature or of art. I myself cannot see the value of the application without a strong natural aptitude, or, on the other hand, of native genius unless it is cultivated - so true is it that each requires the help of the other, and they enter into a friendly compact with each other. (61)

while Cervantes speaks of knowledge helping nature:

". . . the natural poet who makes use of art will improve himself and be much greater than the poet who relies only on his knowledge of the art . . . So nature combined with art, and art with nature, will produce a most perfect poet. (62)

Cultivation of talent is therefore important and the writer must study and imitate the writings of others. " . . . you must give your days and nights," states Horace, "to the study of Greek models" . . . and adds that the Socratic writings would provide the writer with material. (63) Cervantes, too, held the same opinion when he said that

when any painter wishes to win fame in his art, he endeavours to copy the pictures of the most excellent painters he knows; and the same rule obtains for all professions and pursuits of importance that serve to adorn the commonwealth. (64)

* * * * *

In Cervantes, imitation is valid if it is based on truth, for "no story is bad if it is truthful." (65) Later, towards the end of his novel and on seeing the second part being printed, he says that "Works of invention are only good in so far as they adhere to truth or verisimilitude." (66) When speaking of imaginative literature, he declares that "the more it resembles the truth the better the fiction, and the more probable and possible it is, the better it pleases." (67) Thus, probability and possibility are on the same level as truth and verisimilitude.

Fictions have to match the minds of their readers, and . . . they may so astonish, hold, excite, and entertain, that wonder and pleasure go hand in hand. None of this can be achieved by anyone departing from verisimilitude or from that imitation of nature in which lies the perfection of all that is written. (68)

* * * * *

The question of the unity of a work of art was one of the most important elements of Renaissance criticism and a work stood or fell according to whether it lacked or did not lack unity. Both Aristotle and Horace demand a measure of unity in a work of art. With regard to plot, Aristotle states that

the plot of a play, being the representation of an action, must present it as a unified whole; and its various incidents must be so arranged that if any one of them is differently placed or taken away the effect of the wholeness will be seriously disrupted. (69)

For Horace, however, unity is not an organic unity but a means towards producing a specified effect on his audience - "It is a union of content and expression suited to achieve a specified result." (70) Because unity as conceived by Horace is not proper to the artistic organic unity of the work of art itself,

. . . in Horace's doctrine unity has become a matter of decorum which depends on consistency in the relations of the parts of the poem to one another and appropriateness of the language to the matter, but it is otherwise unrestricted except in view of the reactions of the audiences. (71)

In Aristotle's analysis of tragedy, the fable, the characters, the diction and the thought form an integral unity with the whole work of art. With Horace, they are discussed separately, to see how far each one of them is instrumental in producing pleasure and instruction in the audience.

Cervantes speaks frequently of unity but not as a feature of the organic unity of a work but as a means of producing credibility and pleasure. Thus, in a work of art there must be beauty and harmony to cause delight to the mind, for "nothing ugly or ill-proportioned can cause us any pleasure".⁽⁷²⁾ but there can be no beauty and delight without credibility:

What beauty can there be, or what harmony between the parts and the whole, or between the whole and its parts, in a book or story in which a sixteen-year-old lad deals a giant as tall as a steeple one blow with his sword, and cuts him in two as if he were made of marzipan? (73)

In the following quotation, Cervantes refers to the plot in terms that seem Aristotelian, but the emphasis of the image of the limbs of the monster is not because they take away from the organic unity of the book but because they render the figure distorted and ill-proportioned.

I have never seen a book of chivalry with a whole body for a plot, with all its limbs complete, so that the middle corresponds to the beginning, and the end to the beginning and the middle; for they are generally made up of so many limbs that they seem intended rather to form a chimaera or a monster than a well-proportioned figure. What is more, their style is hard, their adventures are incredible, their love-affairs lewd, their compliments absurd, their battles long-winded, their speeches stupid, their travels preposterous and, lastly, they are devoid of all art and sense, and therefore deserve to be banished from a Christian commonwealth, as a useless tribe. (74)

Thus, as we see from this passage, Cervantes places unity on the same level as characters, diction, and incidents and considers them all equally from the point of view of proportion, credibility, decorum and appropriateness. This propriety is directed as usual towards the audience, for "Fictions have to match the minds of their readers." (75)

The same propriety must be maintained with regard to characters and dialogue, for if, as Horace says,

the speaker's words are out of key with his fortunes, a Roman audience will cackle and jeer to a man . . . It will make a great difference whether a god or a hero is speaking, a man of ripe years or a hot-headed youngster in the pride of youth, a woman of standing or an officious nurse, a roving merchant or a prosperous farmer. (76)

Again, Cervantes echoes Horace:

What could be more ridiculous than to paint us a valiant old man and a young coward, an eloquent servant, a statesmanlike page, a king as a porter, and a princess a scullery-maid? (77)

The same considerations of appropriateness and credibility apply to the unities of time and place: the objection again is not because they break down the organic unity of a work of art but because of their absurdity and lack of credibility. "For what greater absurdity," asks Cervantes, "can there be in our present subject than for a child to come on in the first scene of the first act in swaddling clothes, and in the second as a grown man with a beard?" (78)

There is a parallel passage in Sidney where he too complains of the unity of time in some of the contemporary plays:

Now, of time they are much more liberall, for ordinary it is that two young Princes fall in loue. After many trauerces, she is got with childe, deliuered of a faire boy; he is lost, groweth a man, falls in loue, and is ready to get another child; and all this in two hours space . . . (79)

The anomalies of the unity of place were also criticised by Cervantes through the words of one of his characters:

I have seen a play whose first act opened in Europe, its second in Asia, and its third ended in Africa. And if there had been four acts, the fourth no doubt would have finished up in America; and so it would have been played in all four quarters of the globe. (80)

Sidney also complains of a stage where you have Asia on one side and Africa on the other, and "so many other vnder-kingdoms, that the Player, when he commeth in, must euer begin with telling where he is, or els the tale wil not be conceiued?" (81) The stage will then become a garden, then a rock and a shipwreck, a cave and a battlefield.

In conclusion, Cervantes again stresses the credibility and verisimilitude that must be found in a play, otherwise it will be impossible to satisfy any average intelligence, in the same way as a faulty Roman play would not satisfy a Roman audience.

If imitation is the chief aim of a play, how is it possible to satisfy any average intelligence, when an action pretends to take place in the time of King Pepin and Charlemagne, and yet they make the principal character in it the Emperor Heraclius, who enters

Jerusalem bearing the Cross and wins the Holy Sepulchre, like Godfrey de Bouillon, though there was a whole age between the one event and the other? And when the comedy is based on a fictitious story, how can they introduce historical events into it, and mix in incidents that happened to different people at different times; and, even then, with no attempt at verisimilitude, but with obvious errors inexcusable on every count? (82)

* * * * *

Thus, in Italy in the 16th century, a body of critical theory, taking its sources from the classical revival of the Renaissance, grew and developed. Furthermore, this body of criticism spread from Italy to France, England, Spain and the other European centres of learning. This movement had an international character and this was seen not only in the similar ideas shared by men of letters and in their acceptance of classical sources (such as Plato, Aristotle and Horace), but also in their deviations from their classical sources. In addition, each country, with its insistence on the use of the vernacular language, gave this critical system a national character of its own. Cervantes, as we have seen, was influenced - like Sidney - was influenced by classical writers as well as by this Renaissance system of critical thought and was able to apply his critical ideas to the great work that he gave to world literature.

* * * * *

NOTES & BIBLIOGRAPHY

- (1) Miguel de Cervantes Saavedra, The Adventures of Don Quixote, translated by J.M. Cohen (Middlesex: Penguin Books Ltd., 1959).
- (2) E.C. Riley, "Literature and Life in Don Quixote" in Cervantes: A Collection of Critical Essays, edited by Lowry Nelson (Englewood Cliffs, N.J.: Prentice-Hall, Inc., 1969), p. 123.
- (3) Ibid., p. 125.
- (4) Ibid., p. 131.
- (5) Ibid.
- (6) Don Quixote, p. 37.
- (7) Riley, p. 124.
- (8) D.Q., p. 32.
- (9) Ibid., p. 341.
- (10) D.Q., Introduction, pp. 17-18.
- (11) Ibid., p. 17.
- (12) J.E. Spingarn, A History of Literary Criticism in the Renaissance (New York: Columbia University Press, 1954), pp. 145-6.
- (13) D.Q., p. 26.
- (14) Ibid., pp. 26-7.
- (15) Ibid., pp. 27-9.
- (16) Spingarn, p. 126.
- (17) Ibid., p. 127.
- (18) D.Q., pp. 29-30.
- (19) Ibid., p. 30.
- (20) Ibid., Prologue to Part II, p. 468.
- (21) Francis MacDonald Cornford (trans.), The Republic of Plato (London: Oxford University Press, 1973), Book X, p. 325.
- (22) Spingarn, p. 22.
- (23) J. Churton Collins (ed.) Sidney's Apologie for Poetrie (Oxford: Clarendon Press, 1907), p. 46.
- (24) Spingarn, p. 21.

- (25) D.Q., p.568.
- (26) Ibid., pp.568-9.
- (27) Sidney, p.49.
- (28) Ibid., p.23.
- (29) Ibid., p.50.
- (30) Miguel de Cervantes, Man of Glass in The Portable Cervantes, translated and edited by Samuel Putnam (New York: The Viking Press, 1951), p.778.
- (31) Ibid., p.779.
- (32) Aristotle, in The Art of Poetry An Classical Literary Criticism, translated with an introduction by T.S. Dorsch (Middlesex: Penguin Books, 1965), p. 33.
- (33) D.Q., p.567.
- (34) Ibid., pp. 538-9.
- (35) Ibid., p. 428. The phrase ascribed to Cicero by Donatus writing in the fourth century, is: "imitatio vitae, speculum consuetudinis, imago veritatis," ("a copy of life, a mirror of custom, and a reflection of truth"). The phrase is quoted by Spingarn, p. 104, as running through all the dramatic discussions of the Renaissance and particularly in connection with drama.
- (36) D.Q., pp. 255 and 435.
- (37) Ibid., p. 425.
- (38) Ibid., p.60.
- (39) Ibid., pp. 424 and 436
- (40) Ibid., p.426.
- (41) Richard McKeon, "The Concept of Imitation in Antiquity", in Critics and Criticism, Essays in Method (Chicago: The University of Chicago Press, 1963), p.138. Reprinted with minor alterations from Modern Philology, August, 1936.
- (42) Spingarn, p.11.
- (43) Ibid., p.146:
De los primeros tiene Horacio el puesto,
En numeros y estilo soberano,
Qual en su Arte al mundo es manifesto.
- (44) McKeon, 141.
- (45) Ibid., p.143.
- (46) Aristotle, pp.43-44.
- (47) D.Q., p.488.
- (48) Sidney, pp. 16-17.
- (49) Ibid., pp. 21-22.

- (50) Spingarn, p.28.
- (51) D.Q., p.436.
- (52) Ibid., p.78.
- (53) Spingarn, pp. 29 and 46.
- (54) Ibid., pp. 45-6.
- (55) Horace, On the Art of Poetry in Classical Literary Criticism, op. cit., p.90.
- (56) Ibid., p.92.
- (57) Ibid., p.91.
- (58) D.Q., p.430.
- (59) Horace, p.91.
- (60) Ibid., p.90.
- (61) Ibid., p.93.
- (62) D.Q., p.569.
- (63) Horace, pp. 88 and 90.
- (64) D.Q., p.202.
- (65) Ibid., p.77.
- (66) Ibid., p.878.
- (67) Ibid., p.425.
- (68) Ibid.
- (69) Aristotle, p.43.
- (70) Richard McKeon, "The Philosophic Bases of Art and Criticism" in Critics and Criticism, op. cit., p.214. Reprinted from Modern Philology, Nov., 1943, and Feb., 1944.
- (71) Ibid., p.213.
- (72) D.Q., p.424.
- (73) Ibid.
- (74) Ibid., p.425.
- (75) Ibid.
- (76) Horace, p.83.
- (77) D.Q., pp.428-9.
- (78) Ibid., p.428.
- (79) Sidney, p. 50.
- (80) D.Q., p. 429.
- (81) Sidney, p.50.
- (82) D.Q., p. 429.

SIGNIFICANT INCONGRUITIES IN CONRAD'S

HEART OF DARKNESS

RADWA ASHOUR

The question of a writer's historical affinities, says Macherey, is far from simple; it is complex and oblique. A writer's account of his age is never complete because of his individual and social involvement in the historical movement of his time, an involvement mediated by a specific ideology. The historical contradictions of the writer's age are not reflected in the work, they rather explain and account for the contradictions in the book which is neither homogeneous nor symmetrical. Its diversity and complexity are not those of totality but decentredness. The work is split "condemned to a stealthy or oblique relationship to itself". The mirror is not only selective but also partial. It does not only represent a fragmented reality for "the very image in the mirror is itself fragmented". It both reveals and conceals, it is partial and registers its own partiality. "The mirror in certain areas, is a blind mirror: but it is still a mirror for all its blindness". The split in the work, a conflict within the text reflected in the overall structure of the work, is symptomatic.¹ Theoretically this paper, a critical reassessment of Conrad's Heart of Darkness, draws rather heavily on Macherey's theory of literary production.

The White Man Burden...The White Man Guilt

"The title I am thinking of" wrote Conrad to William Blackwood in whose magazine the novel was to be published² "is The Heart of Darkness but the narrative is not gloomy. The crimina-

lity of inefficiency and pure selfishness when tackling the civilizing work in Africa is a justifiable idea".³

Conrad's initial project obviously was an anti-colonial text (the work was started as a short story then "it grew on him"). The idea was to uncover "the philanthropic pretence of the whole concern"⁴ and probably to exercise the nightmarish burden of his Congo experience through writing it down.

Ten years before Conrad had been engaged by Société Anonyme Belge pour le Commerce du Haut Congo. In 1880 he left to the Congo where he spent 6 months mostly as the skipper of a steamer going up the River Congo. He was physically sick and on the verge of a mental breakdown when he broke his 3 year contract on medical grounds and returned to Europe.

The blank spaces in Conrad's boyhood map of Africa, the objects of his childhood dreams, were now filled with a nightmarish reality. Conrad was to record his disillusionment in his essay "Geography and some Explorers".

A great melancholy descended on me. Yes, this was the very spot. But there was no shadowy friend to stand by my side in the night of the enormous wildness, no great haunting memory, but only the unholy recollection of a prosaic newspaper "Stunt" and the distasteful knowledge of the vilest scramble for loot that ever disfigured the history of human conscience and geographical exploration what an end to the idealized realities of a boy's daydreams! ⁵

In a sense Conrad's Heart of Darkness is an attempt to present the gap between the "civilizing idea" and the degrading reality. Marlow's reaction to his aunt's talk about "weaning those ignorant millions from their horrid ways" is both sceptical and ironic: "there had been a lot of such rot let loose in print and talk just about that time, and the excellent woman, living right in the rush of all that humbug, got carried off her feet".

(p.59)

The colonists, ironically referred to as the "pilgrims" were "lusty, red-eyed devils" (p.65.), "mean and greedy phantoms" (p.147.), a "gang of virtue" (p.79.). The Eldorado Exploring Expedition is a devoted band whose talk

was the talk of sordid buccaneers: it was reckless without hardihood, greedy without audacity, and cruel without courage, there was not an atom of foresight or of serious intention in the whole batch of them, ... To tear treasure out of the bowels of the land was their desire, with no more moral purpose at the back of it than there is in burglars breaking into a safe. (p.87.)

The often quoted descriptive passage of the French man-of-war shelling the bush is particularly revealing:

It appears the French had one of their wars going on thereabouts. Her ensign dropped limp like a rag, the muzzles of the long six-inch gun stuck out all

over the low hull, the greasy, slimy swell swung her up lazily and let her down, swaying her thin masts. In the empty immensity of earth, sky, and water, there she was incomprehensible firing into a continent. Pop, would go one of the six-inch guns; a small flame would dart and vanish, a little white smoke would disappear, a tiny projectile would give a feeble screech- and nothing happened. Nothing could happen. There was a touch of insanity in the proceeding, a sense of lugubrious drollery in the sight; and it was dissipated by somebody on board assuring me earnestly there was a camp of natives - he called them enemies! - hidden out of sight somewhere. pp. 61-62.

The high artistic quality of the passage has often been pointed out by critics but our concern here is the associations given in the passage to the acts of penetration and invasion as acts, not of grace as it was common in the public discourse of the period, but of violent imposition and protrusion. The penetration of darkness image is sustained with a modification with the effect of a reversal.⁶

Kurtz's cry "the horror, the horror", a cry which echoes Marlow's own reaction to his experience is the culmination of Marlow's trip to this underworld of violence and moral disintegration.

In this novel, Conrad is a current ideological
the novel is a "pierce
the novel is a "pierce
to save its population from savagery and pollution.

Conrad's scholars often pointed out this aspect of the novel. "Heart of Darkness", writes Albert Guerard, "thus has its important public side, as an angry document, on absurd and brutal exploitation".⁷

Arnold Kettle describes the novel as "perhaps the most horrifying description of imperialism ever written".⁸ Cedric Watts says the novel "so vividly assails the hubris of imperialism and of civilized pretensions"⁹ and in one of the best and most recent studies of Conrad's work, I. A. A. Richards, "Heart of Darkness

But did Conrad have an anti-imperialist ideology? And is Heart of Darkness a critique of Colonialism?

The Liberal Imperialist

If we accepted to view Conrad's Heart of Darkness as an anti-imperialist document exposing colonialist ideology how would we account for the image of Africans in the novel and the racial derogatory terms used in relation to them? In the narrative the Africans are savages "whose black rags were wound

round their loins, and the short ends behind wagged to and fro like tails". p.64.

They were like ants (p.63.), "they crawled", they did not know restraint. "Restraint I would just as soon have expected from a hyena prowling among the corpses of a battlefield". (p.105.) "They were rudimentary souls" (p.119.), a sub-human species distantly related to the human whose language was a string "of amazing words that resembled no sounds of human language". (p.146.) The African fireman was "an improved specimen... to look at him was as edifying as seeing a dog in a parody of breeches and a feather hat, walking on his hind legs". (p.97.)

And of all the Africans in the novel only one, a woman, is treated differently: "A wild and gorgeous apparition of a woman". (p.135.) "She was savage and superb, wild-eyed and magnificent".

Under Conrad's eyes, Africans are horrifying phantoms, exploited savages, objects of pity, the embodiment of an elemental force which knows no restraint, and an exotic appeal.

It was Ian Watt, of all western critics of Conrad, who in a recent work pointed out Conrad's divided attitude to Imperialism. Ian Watt argues that Conrad's commitment to Britain, his adopted country brought him into conflict with his liberal sentiments. And while his attitude was different from Kipling, an outspoken apologist of imperialism, Conrad expressed his belief that liberty "can only be found under the English Flag all

over the world". Watt says that Heart of Darkness carries the same ideological contradictions. In the company's waiting room Marlow observes:

a large shining map, marked with all the colours of a red-good to see at any time, because one knows that some real work is done in there, a deuce of a lot of blue, a little green, smears of orange, and on the East Coast, a purple patch, to show where the jolly pioneers of progress drink the jolly lager-beer. However, I was not going into any of these. I was going in the yellow. Dead in the centre. (pp.55-56.)

The different colours on the map show the occupied territories by the European colonial powers, a colour for each. "The red of the British Empire", comments Ian Watt, "gets a pat, but there is no comment on the other colonizers until the purple patch of the German colonies in central Africa receives its contemptuously ironic kick".¹¹

At the turn of the century the colonial powers were fighting over Africa, the general political atmosphere was one of rivalry and of conflict.

The Belgian Congo, however, provided Conrad with a case where he could speak with absolute freedom, because it was neither British nor a threat to Britain's power in the world, and because the issues

involved went far beyond those of race.

The colony was ideal for another reason: unlike most others, it had been a conscious creation accompanied by a deafening international chorus mouthing the moral slogan of evolutionary political progress but in 1898 this chorus was attacking the savagery of that same Leopold whom, in 1890 Stanley had called the "Royal Founder of this unique humanitarian and political enterprise".¹²

Writing for Maga Blackwood's "respectable" Victorian magazine Conrad, "the spoilt and adopted child of Great Britain and even of the Empire"¹³ was not writing for an anonymous consumer. "One was in decent company there and had a good sort of public" Conrad wrote, "there is not a single club and messroom and man of war in the British Seas and Dominions which has not its copy of Maga".¹⁴

But what were the real terms of the implicit pact between producer and consumer, Conrad and his decent company?

Darkness as an Ideological Motif

"In Geography and Some Explorers" Conrad tells us of his long veneration for the European explorers of Africa and the Americas.

Men great in their endeavour and in hard won successes of militant geography, men who went forth

each according to his lights and with varied motives, laudable or sinful, but each bearing in his breast, a spark of the sacred fire.¹⁵

The Mungo Parks and Livingstones, explorers of parts of dark Africa, blank spaces on Conrad's boyhood map, were "worthy, adventurous and devoted men nibbling at the edges, attacking from north and south, consuming a bit of truth here and a bit of truth there, and sometimes swallowed by the mystery their hearts were so persistently set on".¹⁶ (emphasis mine.)

Africa was dark in both the literal sense of mysterious and unknown and the figurative sense of evil, wicked, foul and devoid of spiritual light. It needed both to be discovered and saved by the sparkbearers of European civilization. Geographical exploration and colonization were the two faces of the same coin. "To pierce the darkness" of Africa was a common expression in the writings of the time.

Darkness was also associated with anarchy. The notion, deeply rooted in christian ideology had often been taken up by English and European writers.¹⁷ Africa, the Dark Continent, was the empire of chaos, the uncreated word to be given shape and meaning by the divine providence of the civilized Europeans (a Prospero-Caliban type of relationship). The white man's burden was to create Africa in his own image. The image of darkness in Conrad's narrative is not a creation of his own as much as it is an ideo-

logical motif which constitutes a theme in Western political and philosophic thought; a motif which Conrad was to transpose, exploit and modify in a process of artistic appropriation.

That Otherness

One of the essential reasons for the complexity of a literary work, says Pierre Macherey, is that,

the work never "arrives unaccompanied"; it is always determined by the existence of other works, which can belong to different areas of production. There is no first book independent and absolutely innocent, novelty and originality in literature as in other fields, are always defined by relationships. Thus, the book is always the site of an exchange: its autonomy and its coherence are bought at the price of that otherness, which can also be, on occasion, an alteration.¹⁸

Governed by its own laws, the book is autonomous, but never independent, its very existence depends on language which is neither independent nor innocent.

Marlow's trip, on board of a steamer to the "heart of darkness" was not only modelled on Conrad's experience in the Congo but also on the voyages of innumerable European explorers, and colonists to the "Dark Continent" or the "New Land". Like Columbus, Cortez, Pizarro, Mungo Park, Livingstone and Stanley,

Marlow's trip up the river Congo is that of a "worthy, adventurous and devoted" man set on "conquering a bit of truth here and a bit of truth there".

Though concealed the presence of these explorers constitutes the narrative's eloquent silence and the history of its meaning. The brave conquistador exploring the newfound land is "that which endows meaning with a meaning".¹⁹ However Marlow's new found land belongs to the domain of the philosophical and psychological (a point which will be discussed later). "To face the darkness" (p.49.), which the Romans did, and to reach the "farthest point of navigation", like Kurtz, is, in spite of all atrocities involved, redeeming.

The conquest of the earth which mostly means the taking it away from those who have a different complexion or slightly flatter noses than ourselves, is not a pretty thing when you look into it too much. What redeems it is the idea only.

(p.51.)

The explorer in the colonizer redeems him. Conrad's Heart of Darkness is split into an exposure of colonial ideology and a loyalty to it.

The Myth of Origin

Like the theme of the island in 18th century European writings, Africa in Heart of Darkness is a presentation of

origins. In his brilliant analysis of Jules Verne's fiction Macherey writes,

The island as a theme is an ideological implement ... an instrument like all the other symbolic representation of origin: the child, the savage, the statue, the first man, the blind man. The presentation of origins also implies the special moment of rupture, the moment of loss of origins: the contrast, the education of the senses, education".²⁰

In Heart of Darkness the myth of origin is introduced by the first narrator in the first three pages of the novel. The reference to "the luminous space", "the luminous estuary", "the tranquil dignity" of "the venerable stream" which carried the memory of "the great knights-errant of the sea" acquires significance with Marlow's remark: And this also "has been one of the dark places of the earth". (p.48.) The theme is to be developed as the narrative unfolds. Britain, now luminous, was dark and the dignified Thames was, in a distant past, wild and untamed. The Romans "were men enough to face the darkness". (p.49.) Now Africa is Europe of yesterday, dark and savage it needs the European bearers of light. The Congo river "resembling an immense snake uncoiled" (p.52.) is the Thames origin and "the venerable stream" is the Congo's future. The Africans belong to the beginnings of time. The white man's encounter with them is an encounter with his own past.

We were wanderers on prehistoric earth, on earth that wore the aspect of an unknown planet. We could have fancied ourselves the first men taking possession of an accursed inheritance, to be subdued at the cost of a profound anguish, and of excessive toil. (p.95.)

The inhabitants of the unknown planet, the Africans, howled and leaped, and spun, and made horrid faces; but what thrilled you was just the thought of their humanity-like yours- the thought of your remote kinship with this mild and passionate uproar. p.96.

Conrad's presentation of origin in Heart of Darkness, however, is also an encounter between "civilized man", who lives under the protection of the social contract, and "the savage" his assumed past and origin. The encounter implies the dreadful recognition of the possibility of retrogression: atavism. The forest was both "appeal and menace". (p.81.) The Congo, coiled like a snake, is a temptation to a return to a state of nature: "An appeal to me in this fiendish row - is there? Very well; I hear; I admit, but I have a voice, too, and for good or evil mine is the speech that cannot be silenced" says Marlow. (p.97.)

But in the absence of the bond of a community, the butcher and the policeman, man's only support against the temptation of the wilderness is "his own inborn strength". (p.97.) Kurtz as

- 2 -

well as the pilgrims, being hollow at the core, had nothing to fall upon. In the absence of the social contract and the community born of it, lack of restraint inevitably ends in retrogression and anarchy. In colonialist ideology the natives are not governed by any social contract nor are they possible partners in a binding contract.²¹

Heart of Darkness is deeply rooted in 19th century social Darwinism, anthropological thought and the Victorian belief in work, restraint and progress and its alter face, fear of retrogression and anarchy.

The Scandal

"The author wants to know and to judge".²² To know the author records what he has observed, to judge he inserts his own ideology. The two projects end up in two different utterances "the one expresses the lucid and the other the confused".²³

In his Congo trip Conrad witnessed the atrocities of the colonial situation which he later displayed in his novel. One utterance in Heart of Darkness is that which renders the inhuman treatment of the Congolese at the hands of colonizers who "were strong, lusty, red-eyed devils, that swayed and drove men - men, I tell you". (p.65.) It is this fictional utterance which exposes the real basis of colonization: material profit admirably symbolized, in the narrative, by ivory.

Conrad also displays the demoralization and deterioration

of Europeans in Africa which he saw in the Congo. His judgement of this acquired knowledge, however, is not that the colonial situation (the laissez faire of human exploitation and material looting) produces the colonialist (a monster of human origin) but that an evil power lurking in the jungle has a de-realizing effect. The land has "a tremendous appeal to the lurking death, to the hidden evil, to the profound darkness of its heart". (p.92.)

The junction between Conrad's distinct knowledge and his confused judgement is particularly obvious in Kurtz's character.

Kurtz, the monstrous colonizer, is half-English and half-French, he has a German name. "All Europe contributed to the making of Kurtz" (p.117.). Like a typical colonizer he carries "the white man's burden", he is entrusted by the society for the suppression of savage customs to write a report for its future guidance (p.117.), a burden ironically opposed to his practice and to the note written in his own hand, "exterminate all the brutes!" Imperialist expansionism is admirably expressed by Kurtz's devouring ego "I saw him open his mouth wide-it gave him a weirdly voracious aspect, as though he had wanted to swallow all the air, all the earth, all the men before him." (p.134.) The scramble for loot of western capitalists will end up in Nietzsche superman paving the way for the notion of super-races, Nazism, Fascism and mass exterminations of World War II. The first utterance of the novel is prophetic, but the se-

second utterance claims that it was the power of correlative wilderness that turned Kurtz into what he became, that he "whispered to him things about himself which he did not know, things of which he had no conception till he took counsel with this great solitude and the whisper had proved irresistibly fascinating". (p.131.)

Conrad's display of the white colonizer as "an animated image of death carved out of old ivory" (p.134.) is both shrewd and prophetic. This is his fictional utterance. His judgement, however, which constitutes his ideological utterance is both confused and confusing. In the latter utterance Conrad, like Balzac's claim in Les Paysans that the rich are weak; they need protection,²⁴ makes the scandalous claim that the white colonizers are corrupted and demoralized by the powers of darkness lurking in the heart of Africa!

Mais après?

In a letter to R.B. Cunningham Graham dated February 8, 1899 Conrad writes.

I am simply in the seventh heaven to find you like the "H of D." so far. You bless me indeed. Mind you do not curse me bye and bye for the very same thing. There are two more instalments in which the idea is so wrapped up in secondary notions that you-even you!- may miss it. And also you must remember that

I do not start with an abstract notion. I start with definite images and as their rendering is there some little effect is produced. So far the note struck chimes in with your convictions - mai après? There is an après.

Conrad's life-long friendship with Cunningham Graham, a distinguished socialist, had started in 1897 when he received a letter from him praising "An Outpost of Progress". Conrad was conscious that the source of his friend's admiration of the first instalment of Heart of Darkness was the anti-colonial theme. But the narrative had another theme which would, Conrad was almost sure, conflict with his friend's convictions. What was this theme "so wrapped up in secondary notions" that one was expected to miss? The letter, written mostly in French might help us find the answer. In it Conrad declines his friend's invitation to attend a "peace meeting", "I am not a peace man, not a democrat". He does not believe in fraternity, he tells his friend, nor in democracy which is but an illusion. Then he adds, switching to French:

L'homme est un animal méchant. Sa méchanceté doit être organisée. Le crime est une condition nécessaire de l'existence organisée. La société est essentiellement criminelle, ou elle n'existerait pas. C'est l'égoïsme qui sauve tout, absolument tout - tout ce que nous abhorrons, tout ce que nous aimons. Et

tout ce tient. Voilà pourquoi je respecte les extrêmes anarchistes - "Je souhaite l'extermination generale." Très bien. C'est juste et ce qui est plus, c'est clair.²⁵

Conrad's sceptical views concerning the nature of man and society were not the outcome of an outburst of anger or a moment of despair, they were convictions he expressed on several occasions. One year before he had written to Cunningham Graham telling him he was tragic with his courage and hopes and beliefs for "what's the profit?" "Every cause is tainted." His socialist friend's efforts were in vain because they were an attempt to reform not institutions but human nature "your faith will never move that mountain." Mankind was not bad, Conrad wrote, but it was silly, cowardly and cruel. Cruelty was a necessary condition for human existence.

... without it mankind would vanish ...

But will you persuade humanity to throw away sword and shield? Can you persuade even me - who write these words in the fulness of an irresistible conviction? No I belong to the wretched gang. We all belong to it. We are born initiated, and succeeding generations clutch the inheritance of fear and brutality without a thought, without a doubt, without compunction, in the name of God.²⁶

Marlow's recognition of this "inheritance of ... brutality" constitutes a bit of truth snatched from his exploration trip. The African scene is a fictional element necessary to play out Conrad's view of man's essential egotism and criminality. Marlow's moral world is shattered by his encounter with a real situation where the moral is no more essential than a garment. The encounter throws a new light on the huge edifice called progress and civilization.

Heart of Darkness displays a confrontation of two opposed strains. A typical 19th century belief in evolutionary progress, civilization, and an implied linear conception of history and a more 20th century European scepticism and nihilism. The conflict is not, as Ian Watt suggests, a conflict between Marlow and his standard Victorian values and Kurtz who embodies Conrad's "forebodings" at the outcome of "the accelerating changes in the scientific, political and spiritual view of the world".²⁷ It is rather an encounter between moral appearance and criminal reality, blindness and knowledge.

Marlow's lie to the Intended, is a conscious choice of a fig leaf to cover up Kurtz's nakedness. The Victorian will to believe is here echoed by Marlow's will to keep the illusion. Like Tennyson's resolution in "In Memoriam" ("And all is well tho' faith and form / Be sunder'd in the night of fear")²⁸, Marlow's is an evasion.

Statenated Game

In a letter dated December 27th 1897 Conrad conceives of existence as a huge self-created knitting machine which works incessantly with neither conscience nor consciousness.

It is a tragic accident, - and it has happened.
You cannot interfere with it. The last drop of bitterness is in the suspicion that you cannot even smash it ... It knits us in and knits us out. It has knitted time, space, pain, death, corruption, despair and all the illusions, - and nothing matters.²⁹

It is difficult not to connect the knitting machine in Conrad's letter to the two women knitting "feverishly" at the company's headquarters in Heart of Darkness; the slim one who walked at Marlow straight as if she did not see him "still knitting with down-cast eyes" and the fat one who glanced at him with swift and indifferent placidity and who seemed "uncanny and fateful".

Marlow often thought of these two women

guarding the door of Darkness, knitting black wool as a warm pall, one introducing, introducing continuously to the unknown, the other scrutinizing the cheery and foolish faces with unconcerned old eyes. Ave! Old knitter of black wool. Morituri te salutant. pp.55-57.

Like the knitting machine, the two women are indifferent and fateful, knitting people in and out of darkness. In this context the image of darkness does not only suggest the African unknown but the "unindurable tragedy"³⁰ of existence in the cold of a mechanical universe. In such an existential situation man's ego becomes his own law and judge. One of the basic ironies of Heart of Darkness is that it is Marlow the upholder of the ideas of progress and morality who discovers "the néant", the existential darkness. He does not conquer darkness but discovers "the heart of a conquering darkness" (pp.155-156) which is only momentarily pushed back through work and organized communal existence. The darkness is both outside and inside, it is the cold unconcern of the universe and the criminal egotism of man.

The African darkness in Conrad's narrative is a screen on which the anxieties of a late 19th century European intellectual are projected. The journey to Africa turns to be an exploration of the "unquiet heart and brain"³¹ of imperialist Europe at the turn of the century. Conrad's divided self between scepticism and belief is one more expression of the "contradiction on the tongue"³² so typical of Victorian intellectuals, a contradiction which finds expression in the form of his novels. "The characteristic Conradian work is an exotic tale of action, richly and concretely rendered, on whose margins play a set of sceptical questions about the very reality of action itself".

While the tale is solid, writes Eagleton, it is thrown into doubt by meaning and questions which blur its contours. "The adventure story gives rise to a simple, solid specificity of action, which is in turn confronted with its corrosive negation".³³

This corrosive negation is achieved through Marlow's role as a narrator and the pattern of imagery. The "inconclusive" nature of Marlow's experience is stated right from the beginning. His way of telling what happened constantly affirms that things are ^{not} clear enough to be totally grasped.

The associations of dark and light/white imagery are subject to a reversal. The conquerers of darkness, bearers of the heavenly spark are struck blind by the land and "when the sun rose there was a white fog, very warm and clammy and more blinding than the night". (p.101.) They are represented by the blind-folded woman carrying a lighted torch in Kurtz' sketch. The metropolis, the very heart of the heavenly light of civilization, is white. Its colour, however, is that of cold death³⁴, it makes Marlow think "of a whited sepulchre" (p.55.), this "white cemetery" is opposed to the mysterious life which stirs in the forest.

In "A Note on the Play of Poetical Allusions in Heart of Darkness"³⁵, Witold Chwalwick points out Conrad's use of Gospel motives in his narratives. "Whited sepulchre", says Chwalwick, is quoted from Matthews and alludes to it:

Woe unto you, scribes and pharisees, hypocrites!
for you are like whited sepulchres, which indeed

appear beautiful outward, but are indeed full of
dead men's bones, and of all uncleanness.

Like a whitened sepulchre the city's apparent innocence covers a horrifying reality. Marlow's deep consciousness of the discrepancy alienates him. However, his lie to the Intended is a willful choice of the illusion: "I would not tell her. It would have been too dark - too dark altogether". (p.162.) The "whitened sepulchre", however ugly, is to Marlow more bearable than the horror of scattered "dead men's bones". Marlow's words, his last in the novel, are a chrystallization of the work's necessity, the meeting point of different lines in the narrative: the colonial enterprise its appearance and reality man's essential criminality and his social pretence, and the option to keep up the illusion in spite of the acquired knowledge. With Marlow's lie "everything seems to be left exactly as it was".³⁶ Marlow might hate and detest a lie because it bears "a taint of death", it makes him "miserable and sick". (p.82.) But he lies and his lie is deemed necessary to go on. "Stalemate games are in one way unachieved, in another way complete; the world goes on, and this is at once the question and the answer of the text".³⁷ Marlow's acquired insight is covered up again. To keep up the illusion, for Conrad the liberal imperialist, is a survival necessity.

Recapitulation

Behind Conrad's Heart of Darkness one detects the shadow of the Worthy Explorer who attacks and conquers "snatching a bit of truth here and a bit of truth there". Both Kurtz and Marlow are modelled on him. Like him they reach "the farthest point of navigation", unexplored regions of human behaviour and consciousness. Kurtz steps in, partakes of the horror of human egotism and criminality. Marlow is very nearly buried but succeeds to "draw back his hesitating foot". (p.151.) In spite of all atrocities involved, Kurtz's exploration and glimpsed truth make him "a remarkable man". He is an explorer and appropriator of new terrains of human experience. The Colonialist Explorer in Heart of Darkness constitutes the novel's eloquent silence. The relation between this silent shadow outside the text and Marlow's adventure story helps to explain the novel's complexity as an autonomous work which while having a logic of its own remains a second reality dependent on historical reality. It is dependent in the sense that it never breaks loose and not in the sense that it reflects historical reality as it is. Conrad transposes the Explorer, exploits him and modifies him. His field of exploration is the intellectual worries and forebodings of European bourgeois intellectuals at the turn of the century. But more important is the fact that while the explorer exploited his new found land turning into a settler or colonizer, Conrad's Kurtz dies after summing up his experience as "the horror!" and Marlow